كيرلس العبد

obeikan.com

المضي قدما
قصص
كيرلس العبد
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٧
ISBN 978 -977-6535-77-0
رقم الإيداع : ٢٠٠١٢ / ٢٠١٧
ديوى : ٨١٣
١٠٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : غادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : غادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

obeikan.com

المضي قدماً

مجموعة قصصية

كيرلس العبد

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى كل الذين صارعوا أقدارهم .

إلى كل الذين أصابتهم رصاصة القدر، فلم تقتلهم ولم تدعهم يعيشون .

obeikan.com

obeikan.com

أصحاب الفانلات الخضراء

نزل الفتي الأسمر من تلك الشاحنة الضيقة، التي تشبه علبة السردين، غارقًا في عرقه، فانجرف وسط رفاقه الذين شكلوا معًا تيارًا بشريًا متدفقا من باب الشاحنة الضيق، يجمعهم جميعًا شعور بالتعب والإرهاق، يذيبهم حر الظهيرة القائظ ، غارقين في العرق على اختلاف ألوانهم وأشكالهم. ثم اصطفوا جميعًا في صف واحد، دون أن ينبس أي منهم بكلمة. لم يمنع التعب عقولهم المرهقة من طرح السؤال الذي لا مفر منه، كيف سنقضي عامًا كاملا في هذا المكان؟

obeikan.com

أخذ الفتيان يجولون بأبصارهم يمينًا و يسارًا محاولين استكشاف المكان الذي سيلتهم أيام عامهم القادم دون رحمة أو شفقة. في محاولة لعمل اتفاقية أو مهادنة بين عقولهم المرهقة وبين جدران هذا المكان، للخروج منه بأقل الأضرار الممكنة.

شئت أم أبيت ستقضي عامًا كاملا بين هذه الجدران، لذلك فالأفضل أن تتأقلم وتتكيف معها، حتى لا تنال منك، وحتى لا تظفر منك إلا بأقل القليل.

نظر الفتيان بعيون مستكشفة محاولين أن يجعلوا عيونهم وعقولهم تعتاد على هذه الجداران ، وتعتاد على هذه الوجوه الجديدة التي تنظر إليهم، التي ستكون بصحبتهم في الأيام القادمة، ستمتزج بهم، وتشاركهم طعامهم وشرابهم. لكن الفتى الأسمر لم يكن يهتم كثيرًا بهذه الوجوه. ركز بصره وعقله في محاولة لاستكشاف بيئة هذا المكان وجغرافيته وطبيعته.

بدا المكان لأول وهلة كمثل غابة مهجورة مكسوة بنبات (الهيش) الذي بدا أنه يغزو كل ركن من أركان المكان دون كلل حتى وصل إلى أطراف المباني الأسمنتية، فبدا كما لو أنه ينمو داخل جدران المبنى نفسه. تخلل تلك الغابة البائسة الكثير من أشجار النخيل غير المشذبة، الباهتة اللون التي نمت بعشوائية وغزارة، كأن الشمس لفحتها فأصبحت أشبه بمبنى قديم لم يجدد طلاؤه منذ

عقود مضت. بدت في وقفتها بين غابة (الهيش) كأنها اعتادت مثل هذا المنظر فأصبحت غير مكترثة.

تحت إحدى أشجار النخيل القريبة وقف شابان يرتدي كل منهما فانلة خضراء باهتة اللون. تشبه ورقة شجر سقطت من شجرة ما ثم بدأت في الذبول، لكنها لم تصبح بعد ورقة جافة بنية اللون، وليست هي أيضا بورقة خضراء يانعة. ورغم وحشة المكان التي من الممكن أن تجذب انتباهك إلى غاية البؤس ثم تدفعك للتفكير حد البكاء، عندما تتخيل نفسك في هذا المكان عامًا كاملا، إلا أن أكثر ما ضايق هذا الفتى الأسمر وأثار اشمئزازه في نفس اللحظة، هو هذه الفانلات الخضراء باهتة اللون، فاسدة الذوق.

كيف يمكن لإنسان أن يرتدي فانلة خضراء بهذا اللون؟

رغم امتلاك الفتى لإحدى هذه الفانلات مثله مثل البقية من رفاقه، إلا أنه لم يفكر قط في أن يرتديها، مازالت في حقيبته، أسفل باقي الأغراض، حينما رآها لأول مرة قرر ألا يرتديها أبدًا. فواراها أسفل أغراضه في حقيبته المكدسة. لم يفق الفتى من أفكاره هذه إلا على صوت أجش أتى من بعيد يقول:

- أهلا بكم يا رجال. مرحبا بكم، أصبحتم الآن جزءًا من هذا المكان، إنه بيتكم اليوم. و نحن كلنا إخوة في هذا البيت. ثم سكت الصوت برهة وعاد يكرر:

- هذا بيتكم يا رجال، قالها الصوت القادم من إحدى الزوايا وكأنه يدعوهم إلى الإقامة في أحد الفنادق الفارهة. وإن كان تكراره لكلمة (رجال) هو أقوى دليل على عدم وجود أي وجه مقارنة بين هذا المكان وبين أحقر فندق على وجه البسيطة، فدائما في مثل هذه الظروف، حينما يذكر محدثك كلمة رجل أو رجال لا يكون الغرض منها هو مدح صفات الرجولة فيك، بل إن الغرض الأساسي هو تهيئتك نفسيا لقدر المتاعب التي ستواجهها بعد قليل. فتتضمن هذه الكلمة معنى خفيا، هو أنك إذا لم تتحمل هذه الظروف واشتكيت، فأنت لست برجل. إنه تحدٍ غير معلن، إما أن تتحمل تلك الظروف القاسية، أو لا تكون رجلا.

بعد خطبة قصيرة تخللتها كلمة (رجال) أكثر من مرة، بدأ الجمع يتحرك نحو هذا المجهول الكامن خلف أشجار النخيل غير المشذبة، داخل هذا الدغل من قصب الهيش الكثيف، وكلما تحرك الجمع كلما ظهر المزيد من الفانلات الخضراء الباهتة، والمزيد من الوجوه الباهتة أيضًا، التي ارتسمت عليها ابتسامة بلهاء غريبة، لم يكن واضحًا لهذه الابتسامة معنى. هل هي ابتسامة رضا حقيقي؟ أم ابتسامة سخرية؟ أم ابتسامة استسلام تام؟

كيف يستطيع هؤلاء الفتيان الابتسام بهذه الأريحية واللامبالاة وسط هذا المكان الباهت.

بدا أن هناك ثمة تحديًا بين الفوج الجديد من الفتية القادمين متجهمي الأوجه، وبين تلك الابتسامة البلهاء المنقوشة على الوجوه الباهتة لأصحاب الفانلات الخضراء.

من يا ترى سينهار أولا ويبتسم في عبث مثل هؤلاء؟ سأل الفتى الأسمر نفسه.

جلس الفتيان القادمون حديثا معًا في ركن من أركان المكان. ورغم عدم وجود ما يمنعهم من الانتشار في أركان المكان الفسيحة إلا أنهم آثروا المكوث معًا، محتمين ببعضهم البعض، في مواجهة اللامعلوم.

مرت الأيام بطيئة، والدقائق قاتلة، ليل صحراوي شديد البرودة، وشمس نهار حارقة، شمس تظهر في الأفق كل صباح، فينظر إليها الفتى ويخيل إليه أنها تخرج لسانها وتقول له: مضت ليلة وتبقي مثلها الكثير. كل صباح ينظر الفتى إلى الشمس، ويعدد الأيام المتبقية فيبدو له أنها لن تنقضي أبدًا.

بدأ الوافدون الجدد ينتشرون في المكان، يؤدون واجباتهم ويتعاونون في توفير احتياجاتهم، اتسعت دائرتهم بالتدريج لتشمل قلة قليلة من الفتيان القدامى أصحاب الفانلات الخضراء ذوي الابتسامات البلهاء، ووسط برودة الليل المقيت بدأت ضحكات بعضهم تعلو،

وتجذب المزيد من الوافدين، كانجذاب الفراش نحو الضوء.

بعد مرور ستة أشهر في هذا المكان تكون مزيج عجيب بين وجوه مختلفة تدرجت في أشكالها صور مختلفة للضحكة البلهاء. وانشغل الفتى الأسمر عن مناجاة شمس الصباح، بالتفكير في تجهيز طعام الفطور، أو في تنظيف ثيابه وغسل المتسخ، ورتق الأجزاء المتهالكة منها، وبينما يحاول أن يرتق إحدى الفانلات المتهالكة، بحث في حقيبته عن الخيط الذي يستخدمه دائما في مثل عمليات الحياكة الطارئة تلك، لم يجد الخيط، بحث بدقة أكثر بداخل الحقيبة ولكن يبدو أن الخيط قد اختفى. أو قد نفد من كثرة الاستخدام.

لاحت أمامه الفانلة الخضراء، نظر إلى الفانلة الأخرى المتمزقة، ثم نظر إلى الفانلة الخضراء. لا يوجد خيط. لا يمكنني الحياكة. كانت الفانلة الخضراء مازالت تحتفظ بلونها الأصلي دون شحوب.

بعد مرور شهرين كان الفتى الأسمر يتجول بين أدغال قصب الهيش الكثيفة، سائرًا بين النخيل مرتديًا فانلته الخضراء شاحبة اللون وعلى وجهه ابتسامة لم يستطع أحد أن يحدد إذا كانت هي نفس الابتسامة البلهاء أم لا.

❊ ❊ ❊

أبو الذيــك

وجه مستدير ضخم، ولغدٌ سمين متدلٍ يصل إلى قرابة أطراف ثديين مترهلين مختبئين تحت جلبابه البلدي غير المهندم. أنف كبير ذو فتحتين واسعتين، خلف أرنبة أنف دقيقة للغاية تبدو كمنقار طائر خيالي. تجعلك تقف في اندهاش أمام هذا التكوين الغريب لأنف متسع العرض من الخلف، مدبب بشدة من الأمام. كهرم من أهرامات القدماء.

obeikan.com

أسفل كل هذا تقبع حنجرة عظيمة تخرج صوتا غليظًا أجش يصيبك بالصداع بعد سماعك لُأول جملتين، فلا تعرف إذا كان مصدر هذا الزئير المزعج هو تلك الحنجرة الرهيبة أم هو هذا التجويف البطني الواسع (أو قل التجويف الكرشي) الذي ربما كان يهدر الهواء عبر هذه الرقبة الغليظة السميكة. كآلة أرغن تالفة عتيقة الصنع. فيخرج هذا الصوت الأجش.

كان هذا هو أبو الذيك، الرجل الريفي الذي تجاوز العقد السابع من عمره، والذي جلس كعادته تحت جذع إحدى الأشجار المورقة في قريته، مستندًا على جذعها بظهره السميك، فبدا جذع الشجرة كثعبان يلتف على ظهره العريض. وقد استقرت مقعدته وفخذاه على الأرض العارية، مفترشًا الأرض كأنه أحد عروش نبات البطيخ، دون أن يكترث بالتراب، أو يخشى على نظافة جلبابه عديم اللون. يكفيه أن ينفض جلبابه بيده من آثار التراب العالق به بعد أن ينهي جلسة النميمة خاصته، ثم يبصق في الأرض محاولاً إخراج بعض الغبار الذي تسلل إلى صدره نتيجة العاصفة الترابية التي هبت بعد أن نفض جلبابه. يسعل عدة مرات بتأنٍ، ويبدأ المشي في هدوء متجهًا إلى بيته.

لكن كل هذه الصفات العجيبة لم تكن هي أغرب ما يمكن قوله عن أبي الذيك، ولم تكن هي أهم المواصفات التي امتاز وتفرد بها بين أهل القرية. كان سره الأكبر،

ولغزه الأعظم يقبع تحت حاجبيه الكثيفين، مختفيًا خلف رموش عينيه التي مهما دققت النظر فيها فلن تستطيع أن تجد بها ثمة شعرة واحدة. وكأن أبا الذيك يواظب على حلاقتها يوميا. خلف هذه الرموش الصلعاء اختبأ سره الأغرب..... عيناه !!

الحقيقة أنك إذا نظرت إلى عينيه فقط متجاهلا غرابة باقي الوجه فلن تجد بهما أي شيء غير مألوف، ولن تثير فيك أي مشاعر غير طبيعية. فهي تبدو كعيني أي رجل في مثل هذا العمر، لكن لن يكون هذا هو رأي أي شخص تسأله عن عيني أبي الذيك من أهل القرية، ذكرًا كان أم أنثى، رجلا أو طفلا أو حتى رضيعًا، إذا استطاع هذا الرضيع الكلام. فالجميع أجمعوا واتفقوا على قدرة عينيه الخارقة في الحسد، حسد مختلف عن أي نوع من الحسد سمعت به أو اختبرته من قبل، إنه حسد آني المفعول، مركز، مقصود وموجه. فيكفي أن يرفض أحد السائقين أن يُقِل أبا الذيك معه في سيارته الأجرة إلى المدينة لمعرفته المسبقة نية أبي الذيك عدم دفع الأجرة، حتى تتوقف سيارته بعد بضعة أمتار. دون سبب ظاهر، تلف لحظي في المحرك، أو كسر في عمود الإدارة لسيارة لا تتعدى حمولتها أربعة أفراد. يذكر الجميع عبد النعيم السائق الذي لم يتوقف ليُقِل أبا الذيك معه في سيارته لأنه كان متعجلا. فلم يرَ أبا الذيك حينما أشار له. وكيف أن سيارته تعطلت فجأة وكلفته

هذه الغلطة غير المقصودة عَمرة كاملة للموتور دفع فيها مبلغًا كبيرًا من المال. ويشهد جميع أهل القرية أن عبد النعيم ظل يصرخ في وجه الميكانيكي وهو يدفع النقود قائلا:

- والله العظيم لم أره، والله العظيم ما رأيته.

تصل الأخبار إلى أبي الذيك في جلسته تحت جذع الشجرة المرهق من ثقل ظهره وثقل ظله أيضا، فيضحك في خبث كاشفًا عن أسنانه البشعة دون أن يعلق بأي كلمة، لكن تظل عيناه كما هي عادية، لا ميزة ظاهرة فيها ولا عيب.

لم يكن أبو الذيك هو الأسطورة الخارقة الوحيدة في قرية العجائب تلك، فتنوعت الأساطير بين عادات سحرية تجلب الحظ، وأفعال أخرى تداوي الأمراض. لكن يبقى أبو الذيك متفردًا لكونه أسطورة تمشي على قدمين. أسطورة تسير بين طقطقة الملح وإشعال البخور وحرق العرائس الورقية. أجمع الجميع على قدرته وصدق الجميع أخباره وتناقلوها بينهم. إلا آدم، الفتى العشريني، الذي رغم كونه واحدًا من أهل القرية إلا أنه لم يصدق شيئا من هذه الأشياء. كان ينعتها في أعماق نفسه بالخرافات. وبالطبع لم يكن السر في رفضه لمثل هذه القصص هو نصيبه الوافر من التعليم، فلم يكن هو

المتعلم الوحيد في هذه القرية. بل كان هناك الكثير ممن حظوا بقدر جيد من التعليم، فمنهم الأطباء والمهندسون والمعلمون. لكن الجميع على اختلاف مستواهم التعليمي كانوا يصدقون هذا النوع من الحكايات، ويستشهدون به في أحاديثهم. ويجدون لذة خاصة في ترديد هذه الحكايات في أسمارهم.

لم يصارح آدم أحدًا من رفاقه أو من أهله باعتقاده هذا. بل كان يجلس معهم ويستمع لتلك الحكايات وحينما يلتفت إليه أحد يبتسم آدم ابتسامة خافتة، دون أن يعلق بالسلب أو الإيجاب. فهو يرى أن مجرد الكلام والحكي لن يفيد أو يضر ومهما حاول الشرح ومهما برهن لهم فإن أنصار أبي الذيك سينتصرون له عليه. لامتلاكهم بدلا من الدليل ألف دليل وشاهد، وألف قصة من القصص المتادولة في أرجاء القرية التي يعتبرونها أقوى برهان، لذلك لاذ آدم بالصمت فالصمت أحيانا خير جليس.

لكنه أحيانًا كان يضيق ذرعًا من صمته فيبوح ببعض الحديث إلى والدته، متحديا إيمانها وقناعاتها بابتسامة ودود. وكلمات غريبة على مسامعها. فيلوح لها بأنه غير مقتنع بهذه الخرافات، كما فعل ذات مرة حينما طلبت منه والدته ألا يتأخر في المساء خارج البيت، وأن يعود سريعًا إلى المنزل. خصوصًا أن الطريق الشرقي الذي يمر به في طريق عودته إلى البيت مسكون بالجن

والعفاريت منذ القدم. حيث إن جدته رحمة الله عليها، قابلت أحدهم هناك في هذا الطريق، فكانت الجدة في طريق عودتها بجرة الماء قبل دخول شبكات المياه إلى القرية، وقد تأخر بها الوقت، فقابلتها عفريتة جارتها القديمة (أمثال)، التي ماتت في حريق مروع منذ عدة أعوام، لكن جدته لم تجزع، وقالت لها بقلب ثابت "إن كنتِ تريدين خيرًا فخيرك عليك، وإن كنتِ تريدين شرًا فشرك عليك"، فلم تؤذها هذه العفريتة؛ لأن جدته كانت امرأة طيبة، وتلك القتيلة كانت طيبة أيضا. لكن هذا لا يمنع أن هناك عفاريت أشرارًا، يذيقون من يقابلونه الويل والعذاب .

وإن كان آدم قد تغاضى عن الدخول في جدال لإثبات صحة أو زيف هذه القصة، واكتفى فقط بأن قال إنه يرحب بمقابلة الخالة (أمثال) وابتسم، فجدته رحمها الله غير موجودة معنا، لذلك فالنقاش غير ذي معنى. لأن الراوي الأصلي غير موجود أصلا، لكنه لم يستطع كبح جماح لسانه حينما حكت له والدته عن أبي الذيك، وكيف أنه قابل مجموعة من الصبية تحت إحدى أشجار النخيل الفارعة، يقذفون النخلة بالطوب والحصي ليحصلوا على القليل من البلح. ونظرًا لعلو النخلة الشاهق لم يستطيعوا أن يصيبوا أي سباطة. فراهنهم أبو الذيك على أنه يستطيع أن ينزل سباطة كاملة رغم علو النخلة، ولما قبل الصبية الرهان. نظر أبو الذيك إلى السباطة وقال

مخاطبًا إياها: "يالك من سباطة جميلة محملة بالبلح". فما لبثت تلك السباطة أن سقطت وسط تهليل الصبية وصياحهم. هنا نظر آدم إلى والدته وقال بسخرية:

- إذا كان أبو الذيك يملك هذه القدرات غير العادية وهذه السلطة المطلقة، فلماذا لا يستغلها لمصلحته؟ بأن يجمع الأموال مثلا في مقابل جني الثمار دون الحاجة لعمال، أو في هدم المنازل القديمة دون استخدام المعدات. ولماذا لا تستعين به الحكومة في محاربة الأعداء مثلا؟ فيمحو مدافعهم بنظرة من عينيه.

رغم كل ذلك لم يكن آدم يكره سماع هذه الحكايات أو ينفر منها إذا لم تتجاوز حدود الحكي، بل كانت سبب متعة تشبه تلك الموجودة في قراءة الروايات الغرائبية. لكن تظهر المشكلة حينما تتجاوز هذه الروايات حدود الحكي، فيصبح عليه العودة إلى المنزل قبل حلول الظلام حتى لا يقابل الخالة (أمثال)، ويصبح ضروريًا على كل سيدة إذا رزقها الله بمولود أن تختفي خلف جدران منزلها طوال النهار ولا تقابل أحدًا حتى بداية الشهر العربي الجديد، ورؤية هلاله خوفًا من (المشهرة). لأنه إذا رآها أحد في وضح النهار قبل أن تواجه هلال شهرها العربي الجديد، سيكون بذلك قد (كبس) عليها، وأصابها بالمشهرة. والنتيجة الطبيعية البائسة لهذه الحادثة المروعة هي أن تصاب تلك السيدة ومولودها بالمرض، أو أن تفقد خصوبتها، فلا تستطيع

الإنجاب مرة أخرى، ولا يوجد سبيل للخلاص من هذا المصير إلا بأن تقوم تلك السيدة بدور فائق الشر. فتذهب إلى إحدى نساء القرية اللائي رزقن حديثا بمولود، والتي لم ترَ هلال الشهر الجديد بعد، و(تكبس) عليها، فينتقل العقم منها إلى تلك البائسة وتنحل عقدتها. وبالطبع ليس هناك غرابة إذا عرفت أن مجرد زيارة سيدة لم يرزقها الله بطفل لجارة لها ولدت لتوها طفلا، هو نوع من الغزوات الحربية الذي يجهز فيه كلا العائلتين أسلحتهما، حتى تنتهي المواجهة. فيبدأ الموضوع كزيارة عادية، وينتهي بشجار أو ربما قطيعة بين سيدات الأسرتين، حتى وإن كانت السيدة التي تقوم بالزيارة صافية النية، ذهبت فقط لتهنئ جارتها وتفرح معها بالمولود الجديد.

أما الأبشع من مقابلة الخالة (أمثال)، ومن شجار السيدات، هو أن تضطر إلى دفع ضريبة معنوية لأبي الذيك، فتبتسم في وجهه الكريه وتضحك على مزاحه الثقيل اتقاءً لشره. هذه هي الضريبة التي كان يدفعها آدم إذا اضطرته الظروف أن يجلس في نفس مجلس أبي الذيك، فيحاول أن يرسم بسمة على شفتيه، لكنه ينسى دائما أمر حاجبيه. فلا يفهم من ينظر إلى وجهه في أي حالة هو، بين الحاجبين المقطبين والشفاه المبتسمة. لكن هذه الابتسامة كانت مختلفة في هذا الغروب. حينما حل أبو الذيك ضيفًا طارئا على أحد المجالس التي كان آدم

من بين المتسامرين فيها، واستطاع أبو الذيك أن يكون محور الحديث. تحولت الأنظار كلها إليه، وهو يلقي بقفشاته ثقيلة الظل. ويسرد صولاته وجولاته في القرية والقرى المجاورة. وبينما هو مندمج في إحدى حكايات النميمة خاصته، لاح من بعيد شبح لفتى ضخم قادم إلى المجلس. بينما الشمس تنحدر في الأفق وتسحب أشعتها ببطء، اختفت ملامح هذا الفتى في ضباب ما قبل المغيب. فبدا كعملاق قادم من المجهول يحجب ما تبقى من ضوء الغروب بكتفيه العريضتين. نظر إليه أبو الذيك ودقق النظر ثم حاد عن حكايته التي كان يحكيها وقال:

- ابن مَن هذا؟ يبدو أن الله أعطاه صحة كصحة ثور من ثيران الحقل.

لم يكد أبو الذيك يكمل كلامه حتى بدأت عيناه في الاتساع، وهو ينظر نحو الفتى الذي بدأت ملامحه تظهر ببطء. بدأ أبو الذيك يدقق النظر وفمه فاغر وأنفاسه متسارعة، يكاد لسانه يلامس الأرض من هول المفاجأة. لقد كان هذا الفتى هو فرج ابن أبي الذيك الوحيد.

ساد المجلس حالة من الصمت والترقب والدهشة. وهم يشاهدون فرج يشق مجلسهم متجهًا نحو والده، الذي بدأ العرق يتصبب من جبينه ولغده السمين، لم يلاحظ فرج

أي شيء غريب بل اتجه مباشرة نحو والده وقال له بهدوء:

- لقد جاء خالي حسنين من السفر وهو ينتظرك في المنزل.

انصرف فرج بهدوء والأنظار كلها معلقة بأبي الذيك الذي أصبح في موقف لا يحسد عليه، خاصة وأن فرج هو الابن الوحيد لأبي الذيك الباقي على قيد الحياة. فقد توفي الابن السابق لأبي الذيك بمرض غريب وهو رضيع، وكان أيضا يدعى فرج، فلما رزقه الله بابن ذكر آخر في السنة التالية صمم أن يسميه أيضا فرج.

ترك أبو الذيك المجلس وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، دون أن ينفض غبار جلبابه، ودون أن يسعل أو يبصق على الأرض، ثم بدأت هسهسة خافتة تسري في المجلس. ما لبثت تلك الهسهسة أن تحولت إلى جلبة وضجيج وجدال بين أفراد المجلس، فمنهم من قال إن فرج لن يتم هذا الأسبوع قبل أن يلقى حتفه، ومنهم من يرى أنه ربما يصاب بمرض عضال، بل إن بعضًا منهم قال إن أبا الذيك لن يذهب إلى منزله بل سيذهب ليستعد وليجهز مراسم العزاء لمعرفتهم السابقة بقدرته الخارقة. همهم الجميع ولم يبتسم آدم هذه المرة. لكن ارتسمت على وجهه نظرة شفقة، ليست شفقة على فرج الذي اعتبره الجميع في عداد الموتى، بل على أبي الذيك الذي

بدا شديد الضعف قبل أن يذهب من المجلس. علت الهمهمة في القرية كلها، ورجع آدم إلى منزله وحكى لوالدته ما حدث، وحكى لها كيف كان حال أبي الذيك وأن أبا الذيك الساخر لاذع اللسان بدا كطفل صغير حينما عرف أن الفتى القادم هو ابنه فرج، فاكتسى وجهه القبيح بملامح الأبوة في لحظات. تعاطفت والدته مع أبي الذيك وقالت لآدم:

-لابد أنه يحب ابنه فرج كثيرًا يا بني، فابنه السابق الذي كان يدعى فرج أيضا مات وهو رضيع بمرض غير معروف وهذا هو الابن الوحيد له الآن.

مرت الأيام والسنون ومات أبو الذيك ودفن، وسافر آدم من القرية والتحق بإحدى الوظائف هناك وسكن بجوار عمله، لكنه لم ينسَ قريته، وكان يزورها ويزور والدته مرة كل عام، وفي إحدى المرات حينما عاد إلى منزل والدته، لاحظ أن هناك تسريبا للمياه في إحدى مواسير المياه بالمنزل، وأن والدته قد ربطت هذا الشرخ بقطعة قماش، وكأنه بدا لها أن القماش سيمنع تسرب المياه، فأصر آدم أن يستدعي أحد السباكين لمعالجة هذا الشرخ. لم يكن هناك أفضل من فرج لهذه المهمة، وقد أصبح فرج اليوم رجلا مفتول العضلات، متمرسا في أعمال السباكة. وإن كان يبدو عليه أنه يمارس هذه المهنة ببعض العنف، لكن يبدو أن هذا ما ميزه عن باقي

السباكين، وأصبح مظهره الخشن الضخم وهو عائد من عمله برهانًا ظاهريًا على مهارته.

دخل فرج المنزل وبدأ في مزاولة عمله، لم يتذكره آدم في البداية ولكن بعد أن دقق النظر تذكر على الفور تلك الليلة التي ظن الجميع فيها أنه آخر ليلة له، قبل أن يلقى حتفه مقتولا بسهام عيني والده المسمومة. ابتسم آدم ابتسامة خفيفة وذهب إلى والدته في المطبخ ليخبرها أن السباك الذي يعمل لديهم هو فرج، سكتت والدته برهة وأخذت تفكر ثم قالت متسائلة: فرج؟؟ ابن أبي الذيك؟؟ أبو الذيك الذي كان يستطيع أن يفل الحديد بعينه.

والتفتت إلى آدم وقالت:

- هل تعرف يا ولدي أن فرج هذا كان لديه أخ آخر اسمه فرج أيضًا جاء في يوم إلى مجلس والده ولكن أباه لم يلحظه من بعيد فأعجبه جسم الفتى وقال إن له صحة كصحة أحد الثيران، فمات يا ولدي الغلام مقتولا بعين أبيه الحاسدة!!

❊ ❊ ❊

الفتى الأحول

لم أكن أكثر من مجرد طفل حين كنت أجوب أنحاء القرية ممسكًا تارة بيد أبي وتارة أخرى ممسكًا بطرف ثوبه. كانت ذاكرتي آنذاك مثل الإسفنجة. تمتص ما يقع أمامها من أحداث دون تفرقة. كنت أحتفظ فقط بالأحداث وما تولده في داخلي من مشاعر دون تحليل أو تفكير. وصادفنا ذاك الشاب في إحدى عصاري شهر أغسطس الحارة. كان هذا الشاب طويلا فارعًا، يرتدي نظارة طبية قاتمة العدسات، أخفت معظم سمات عينيه، وإن كان واضحا للعيان أثر حول أو عطب ما في عينه اليمنى لم تستطع النظارة إخفاءه. جلبابه مكويّ ومفرود.

obeikandl.com

نظيف دون أثر لأي ذرة غبار به. رغم تلك الأناقة والنظافة الظاهرة لم يرقني ذاك المنظر منذ الوهلة الأولى. كانت هيئته جامدة، كمثل تمثال حجري متحرك.

لا يبدو عليه أي تعبيرات. وجهه لا يعكس أي عواطف، كأنه يتحرك دون مشاعر. دون اكتراث لجمال التربة الطينية الزراعية المنتشرة في معظم أجزاء القرية. غير مهتم بمتعة الجلوس تحت ظل شجرة كثيفة الأغصان في ظهر يوم قائظ الحر، ولم يختبر الجلوس فوق المصطبة الطينية المنتشرة أمام أغلب بيوت القرية في تلك الفترة.

كان هذا الشاب يتبادل الحديث مع قرين له عن إحدى الفتيات التي قابلها في المدينة. كانت الشهوة تشع من جسده، وبدا أيضا أن عينيه غير واضحة الملامح تلك تشع هي الأخرى بشهوة غريبة. شهوة دون عاطفة. لم أعِ تمامًا ما يقوله لكن تولدت لديّ مشاعر عدم القبول وعدم الارتياح تجاه هذا الشاب منذ الوهلة الأولى.

أصبحت هذه المشاعر دائمة الزيارة لي كلما مررت أمام المنزل الذي يسكن فيه. كلما مررت أمام منزله، أتطلع نحوه بحذر وأمشي مسرعا. لم يفارقني إحساس عدم الارتياح لهذا الشاب رغم أنه لم يسئ لي من قبل.

مرت الأيام وتعاقبت السنون. أصبحت شابًا في العشرينات من العمر. كنت أجلس في نهاية الزقاق الضيق الذي يحوي منزلي، جالسًا على كرسي ممسكا

بيدي كوبا من الشاي. محتسيًا الشاي أنا وأحد جيراني اليافعين الذين يخطون أول خطواتهم في مرحلة الشباب. كنت أعتبر هذا الجار مثالا حيًا للطيبة والصفاء. ربما كانت سذاجته هي سبب هذا الإحساس. رغم انخراطه في طريق المخدرات لفترة من الزمن ليست بالقليلة، كنت واثقًا أن هذا عرض طارئ عابر نتيجة للظروف المحيطة به. فدائما أرى أن هذا الجار كالمرآة، يعكس الوسط الذي يوضع فيه دون تغيير أو دون مقاومة.

لا ذنب له في ما قد يحتويه هذا الوسط من شر ولا فضل له إذا احتوى هذا الوسط الخير. كانت قدرته على اتخاذ القرارات محدودة. لذلك كان يبدو كدمية يحركها الآخرون في أحيان كثيرة، فكانت فترة انجرافه للمخدرات فقط بسبب وجوده لفترة ما بين مجموعة من الأشخاص يتعاطون المخدرات. ويقيسون رجولة الرجل فيما بينهم بمقدرته على تعاطي المخدرات.

لذلك لم يدخر هذا الجار قرشًا في سبيل شراء تلك العقاقير له أو لهم، قاضيًا الليل بطوله في صحبة هؤلاء الأوغاد. ولما تبدلت الأحوال وعمل لفترة ما بين أشخاص بسطاء يعملون في مهنة البناء. يستيقظون مبكرًا وينامون أول الليل نظرًا لظروف عملهم، كان أول المستيقظين، وأكثرهم همة ونشاطًا، وأكثرهم عطاءً وبذلا للجهد.

رشفت رشفة من كوب الشاي وأنا أتبادل أطراف الحديث مع هذا الجار. ثم لمحت بطرف عيني ذلك الشاب يعبر الطريق أمامنا، ثم يعود مرة أخرى. لم أعر الموضوع اهتمامًا، حتى وجدته يحوم حول الزقاق وكأنه يود التقدم نحونا والحديث معنا. لم أستمر في التخمين والتفكير كثيرًا فقد تقدم هذا الشاب نحونا وبادر جاري بالتحية. تقدم بخطى حثيثة ولما أصبح على بعد خطوات قليلة مني، مددت أنا يدي مصافحًا إياه، فلبث ساكنا بضع ثواني حتى صافحني. ثم سألنا عن أحد الأشخاص الذين يقطنون معنا في هذا الشارع، ولما شرعت في الإجابة عن سؤاله، بدا كأنه لا يعيرني اهتمامًا بل سلط القسط الأوفر من تركيزه على جاري الشاب وبدأ الحديث معه.

كانت هيئته قد تغيرت، لم تتغير كثيرًا، فالجلباب ما زال مكويًا نظيفا، وإن كانت هناك بقعة متسخة خلف أحد أكمام جلبابه ظهرت حينما اقترب منا. بدا أن عينه ازدادت حولا.

لم يكن حولا بل على الأغلب فإن عينه اليمنى قد تلفت بالكامل. أدركت سبب تردده في مصافحتي، فقد كنت واقفا أمام عينه اليمنى. لم يعد شابًا مثلما ارتبطت هيئته في مخيلتي، بل صار رجلا في منتصف الأربعينات من عمره. لم أفهم في الأول سر العلاقة بين هذا الرجل الأربعيني وذاك الشاب الذي لم يكمل حتى الآن نصف

سنوات عمره الأربعين، وازدادت دهشتي حينما تمادى الرجل الأربعيني في إظهار الود والترحيب بهذا الجار، ثم تحولت لهجة المودة إلى لهجة اعتذار، فقال الرجل الأربعيني:

- لا تغضب مني عما بدر مني أول أمس، لقد كانت الأمور خارج سيطرتي.

قال الفتى دون اكتراث:

-لا تهتم، لقد انتهى الموضوع ولم أغضب منك.

سكت الرجل الأربعيني لحظة ثم قال لجاري:

-أعطني سيجارة.

مد الشاب اليافع يده في جيبه وأخرج علبة سجائر، ثم أخرج منها سيجارتين. قدم لي إحداهما، رغم علمه أنني لا أدخن، فأشحت بيدي شاكرًا، فوضعها في فمه. ثم أعطى هذا الرجل السيجارة الأخرى، فأخذها منه بلهفة، ووضعها في فمه وأشعلها. ثم بدأ يمتص دخانها بنهم وشراهة. أخذ الرجل الأحول ينفث الدخان ثم استأذن منا ومضى في طريقه وسط دخان السجائر.

❊ ❊ ❊

سيدة المصعد

يقول ديستويفيسكي في روايته (في قبوي)

" أنا إنسان مريض... إنسان حقود... إنسان ممقوت... لقد حاولت أن أكون حشرة عدة مرات.... إلا أنني لم أكن أستحق أن أصبح حشرة.... ولكنني أعرف أن مجموع ٢+٢=٤. "

أما أنا، فإني أعرف أنني إنسان مريض... وحقود... وممقوت... وحشرة... ولكنني غير متأكد إن كانت ٢+٢=٤ أم لا.

obeikan.com

أستيقظ كل يوم صباحًا في نفس الموعد. تغمرني رغبة شديدة في عدم الذهاب إلى العمل. لكن لخوفي من المجهول ولجبني الشديد. أقاوم هذه الرغبة كل يوم وأنهض من فراشي. أفعل نفس الأشياء بنفس الترتيب.

ثم أذهب إلى العمل بنفس الطريقة. أستقل نفس المواصلات.

أجلس على نفس المكتب وسط نفس الناس.

غدي كيومي ويومي كأمسي. لا أعتقد أنني مميز بشيء عن أحد. ولا أعتقد أيضا أن أحدًا مميز عني بالكثير.

قلبي لا يحمل الكثير من المشاعر تجاه أحد ولكن يحمل الكثير من الحقد تجاهي أنا. لم يستطع أحد أن يفلت من مصيدة اللامبالاة العاطفية والحقد إلا هي.

لا أعرف لماذا تعلق قلبي بها. هل بسبب جمالها؟ أهي جميلة حقاً؟

وما هو الجمال أصلا؟ هل هو تناسق في الملامح؟

أم حنين لذكريات ما يجعلنا حينما نرى ملامح معينة نتذكر مشاعر معينة فنرتاح لتلك الملامح أو نكرهها على الفور؟ أم أن الجمال هو نوع من البساطة والوضوح؟ أهو نوع من الغموض الجذاب؟ هل يجذبنا الغموض أم يغوينا لؤم العينين؟ وإذا اختفى هذا الغموض هل يزول إحساسنا بالجمال؟ لا أعرف.

ولكني أعرف شيئا واحداً، هو أنني اشعر بخفقان قلبي حينما أراها.

اهتممت بها دون أن تعرف. سجلت الكثير من تفاصيلها وعاداتها في ذهني. لاحظت أنها تحب الزنبق الأبيض. ولاحظت أنها لا تطيل أظافرها كباقي الفتيات ها هنا. تشرب القهوة مرة واحدة في العمل. قبل الغداء. تفضل الحقائب الصغيرة. خمسة أعوام وأنا أعمل في هذا المبنى أراقب تصرفاتها، وأحفظ تفاصيلها. يفصلني عن مكتبها طابق واحد. خمس عشرة درجة من أدراج السلم. كل يوم أتذرع الذرائع لأصعد أدراج السلم الخمس عشرة تلك.

لأقول لها "صباح الخير". وتأتيني دائما إجابتها المهذبة من قاع الجليد "صباح النور". أهم مسرعًا لأنبهها عن تقرير ما يجب أن تنهيه في الموعد المحدد. فتجيبني بنفس البرود "شكرًا". أعطيها ورقة ما تحتاج إلى إمضائها، وكأن الأمر عاجل رغم أن المكان الحقيقي لتلك الورقة هو سلة القمامة. لكن دون جدوى. بل إن الأمر كان يصل أحيانا إلى أن أتولى مسئولية جمع الاشتراكات لرحلات الموظفين أو للأمور الترفيهية.

فقط لأذهب إليها. وأسألها إن كانت تود أن تذهب معنا في تلك الرحلة أم لا. رغم كرهي الشديد لتلك الأمور

الاجتماعية التي تصيبني بالغثيان. وتكون الإجابة دائما "نعم" أو "لا" مصحوبة بـ "شكرا" أو" آسفة".

كم من مرة أصابتني تلك ال (شكرًا) بخيبة أمل. أكره هذا التهذيب المبالغ فيه. يبدو كشيء غير بشري.

وددت لو تتحدث معي. وددت لو أشعر بأني أعني لها شيئا ما. وددت لو تقول لي شيئا آخر غير تلك الكلمات.

خمسة أعوام وددت فيها أن تقابل تصرفاتي تجاهها بالقليل من الود. وددت فيها أن أشعر برابط ما بيني وبينها حتى إنني وددت لو صاحت في وجهي، أو صرخت تجاهي. أو تقول لي اغرب عن وجهي. ربما يكون وقتها لديّ الفرصة لأسألها لماذا؟ فتجيبني عن أسبابها. فأدافع عن نفسي. لكنها كانت دائما تقطع الطريق على دفاعي بهذا التهذيب المقيت. لم يكن هذا ليثنيني عن أن أصعد الخمس عشرة درجة كل يوم لأفعل نفس الفعل وأتلقى نفس النتيجة. ولأن دوام الحال من المحال. ولأن الأرض لا تتوقف عن الدوران باستمرار بغض النظر عما نفعل وعما نتمنى. ذهبت إليها يوما بنفس الحجة الواهية وتلقيت نفس الرد الجامد.

وحين هممت بالانصراف سمعتها وهي تحكي لصديقتها عنه هو. كلمة شاردة أصابت مسامعي كسهم أطلق دون احتراس. لا أعرفه. لا أعرف عنه شيئا. لكنه ظهر اليوم

في حياتي ليتشارك مع الآخرين هذا الحقد المتولد في قلبي البائس، في أيامي المتشابهة.

كالمعتاد انتهى وقت العمل في نفس الموعد وبنفس الطريقة. استقللت نفس المواصلات وسرت في نفس الشارع. وأخرجت نفس المفتاح لأفتح باب العمارة الحديدي. ورأيت تلك السيدة التي أراها أحيانا تدخل العمارة التي أسكن بها. لتزور أحدًا ما. ربما قريب أو صديق أو حبيب. لا أعرف. لم أهتم أن أعرف. دخلت معي من الباب وركبنا معًا المصعد. كان عطرها فواحًا.

مملوءًا بأنوثة طاغية غريبة على شخص مثلي لم يختبر الأمور الأنثوية كثيرًا. ملابسها في غاية الأناقة تبدو مثيرة رغم أنها ليست عارية. اهتمامها بمظهرها جعلها تبدو في عمرٍ أصغر من عمرها الحقيقي. تبدو جريئة في مشيتها وفي وقفتها وفي نظرتها. تبتسم كثيرًا بثقة.

نظرت إليّ في المصعد وكأنها تعرف تأثير هذا العطر.

لم تقل لي شيئا. ولم أقل لها شيئا. خرجت قبلها وذهبت إلى شقتي. وتركتها تكمل طريقها إلى القريب أو الصديق أو الحبيب. قمت بنفس الطقوس التي أفعلها حينما أدخل شقتي الصغيرة. فأفتح ثلاجتي الباردة وأخرج منها طعامي البارد. أضع الطعام على الموقد على أمل أن تزيل ناره برودة الطعام أو تبعث الدفء في حياتي. ترتفع درجة حرارة الطعام ولكنه يظل باردًا.

أذهب إلى سريري وليس في عقلي شيء سوى كرهي لجملة "صباح النور" وضيقي الشديد بكلمة "شكرا". لم أجد في حياتي أقبح من أن يقول شخص لآخر" شكرا". أكره هذه الكلمة الممتلئة بالرسميات. كم أكره كلمة "نعم" وكم أكره كلمة "لا". كم أمقت "آسفة" وأبغض "شكرًا". كلمات جامدة ذات حياد بارد. أكره حيادها. كم وددت لو محوت تلك الكلمات من قاموس اللغات.

دق جرس الباب على غير العادة. إن أغرب ما أشهده في شقتي الباردة تلك هو صوت جرس الباب. لا يأتيني أحد غالبا. لم أعتد على زيارة أحد لي في هذا المنفى. ليس لي أقارب أو أصدقاء. لا يدق جرس شقتي هذا إلا مرة واحدة في بداية الشهر. حينما يأتي مالك العمارة ليأخذ مني الإيجار الشهري. أحيانا يتصادف عدم وجودي هاهنا في وقت مروره. فألبث شهورًا لا أسمع صوت الجرس. لذا فحينما أسمع جرس الباب في يوم غير يوم بداية الشهر. فإنني أشعر باضطراب. وأقضي المسافة بين فراشي وباب الشقة غارقا في التفكير. من يا ترى يدق جرس الباب؟ هل هو شخص ضل طريقه إلى شقة أحد الجيران؟ أم أن أحد الجيران طرأت له فكرة التعرف على الساكن الغامض الذي يسكن هنا؟ لست الساكن الغامض الوحيد. فكل الشقق غامضة بالنسبة لي.

أم هل هو صاحب العمارة أتى في مثل هذا الوقت ليضمن وجودي ويأخذ مني الإيجار؟

تحركت نحو الباب. وفتحت الباب ببطء. لم يكن أحدًا من الجيران. ولم يكن صاحب العمارة. لقد كانت هي. تلك السيدة التي قابلتها في المصعد. ذات العطر المميز. وقفت مذهولا وخجلا وبدا على وجهي الارتباك. وأنا واقف مرتديًا ملابس نومي. بالطبع لم أكن أريد أن يراني أحد بهذا المنظر هي أو غيرها. نظرت إليّ. ثم قالت وهي مبتسمة:

- أعتذر عن إزعاجك ولكنني لم أجد صديقتي في شقتها. وحينما ذهبت لأخرج من العمارة وجدت الباب الحديدي الخارجي مغلقًا بالمفتاح. وأنا لا أمتلك له مفتاحًا. هل لي بمفتاحك. دقائق قليلة سأفتح الباب ثم أعيده إليك. أجبتها:

- بالطبع. لحظة واحدة. وأحضرت لها سلسلة مفاتيحي. وأعطيتها لها وأنا أقول:

-هل تريدين أن أذهب معك لأفتح لك الباب؟

قالت لي:

- ليس هناك داعٍ لأسبب لك المزيد من الإزعاج. فقط أعطني المفتاح ويكفي ما سببته لك من إزعاج. أعطيتها المفتاح وأغلقت. وقفت خلفه غارقا في رائحة عطرها

الأنثوي الذي عبق المكان منتظرًا إياها أن تعود لأخذ المفتاح وأعود لفراشي.

دقيقتان وسمعت وقع أقدامها أمام الباب. لم تكد تدق الجرس حتى فتحت لها. كانت تمسك المفاتيح بيدها وقالت لي:

- معذرة. لم أستطع أن أتعرف على مفتاح الباب الحديدي. لقد جربتها جميعًا. لكن لم يفلح الأمر. أي مفتاح هو مفتاح الباب؟ أمسكت منها المفاتيح ونظرت إليها محاولا استخراج المفتاح المقصود، ولما حاولت إخراجه، نظرت إليها فوجدتها ترمقني بنظرتها الجريئة الحادة. ارتعشت أوصالي. أخرجت المفتاح. أعطيتها إياه. لامست أطراف يدي أناملها البضة. سرت قشعريرة في جسدي كالكهرباء. فضغطَتْ على أطراف أصابعي وهي تقول لي:

- ألن تعزمني على كوب من شاي؟ ثم تسللت من بين يدي إلى الداخل دون انتظار لردي بينما أنا ساكن في مكاني دون حراك. أغلقت الباب غير مستوعب وغير مصدق لما يحدث. نظرت إلى عينيها الجريئتين. كانت تبتسم في دلال واضح، وأنا مازلت متجمدًا خلف الباب. لم أبتسم ولم أتجهم. كأن وجهي قد نسي كيف يرسم التعبيرات. ظل وجهي صامتًا كفمي. ثم تمالكت نفسي وقلت لها:

- لا أستطيع أن أفعل ما تريدين.

ضحكت ضحكتها الجريئة وقالت لي:

- وماذا أريد أنا منك؟

خالف جسدي ما أحاول قوله. تقدمت بجسدي نحوها، وأنا أقول لها: إنك تعرفين جيدًا ماذا تريدين. كانت أجسادنا تكاد تتلامس. كامرأة خبيرة قرأت إشارات جسدي. فتقدمت نحوي، ومدت يدها نحوي. حضنتني دون أي كلام. وجدت نفسي أحضن تلك السيدة. ويدي تلتف حول خصرها الرشيق بينما عقلي مازال يتساءل. ماذا أفعل؟ كان شعورًا متداخلا مبهما. بين ثلاثة نقائض. جسد يطلب الارتواء، وقلب يرفض إقامة علاقة بهذه الطريقة، وعقل يطلب فرصة ليستوعب حتى يقرر أي طريق يسلك. لامست شفتاها شفتيّ وعقلي مازال ثملا من عطرها الأنثوي المسكر. تبادلنا القبلات بينما نصف جسدي يجذبها ويضمها والنصف الآخر يدفعها بعيدًا. تمالكت نفسي للحظة ثم نظرت إليها. وأمسكت يدها مبعدًا إياها عن خصري. ومبعدًا إياها عن دائرة حضني. وقلت لها:

-لا أستطيع. لا أستطيع أن أفعل هذا الشيء الآن.

ضحكت بدلالها المعتاد. وحاولت التقدم نحوي مرة أخرى وهي تسألني بخبث:

- لماذا لا تستطيع فعل هذا الآن؟

لم أكن أعلم حقا أي سبب أقوله لها. لكني وجدت نفسي أحاول أن أبدو جادًا وحازمًا. قلت لها إن صديقا حدثني في الهاتف منذ دقائق وقال لي إنه قادم لزيارتي. ولابد أنه سيصل هنا في أي لحظة، وبالطبع لا يجب أن يراكِ هاهنا. إنه من الممكن أن يطرق الباب في أي لحظة. رجعت قليلا إلى الخلف. واختفت ابتسامتها للحظة ثم نظرت إليّ ورمقتني بنظرتها. وكأن الكذب قد بات واضحا في عينيّ. ضحكت وهي تتقدم نحوي قائلة:

- أنت تكذب. وبدأت يدها تتحسس أماكن ضعفي لتجبرني على الخضوع والتراجع عن كذبتي.أمسكت بيدها وقربتها من شفتي. قبلت أصابعها برفق وأنا أقول لها:

- أنا لا أكذب. أنا أريدك بشدة. هل تشكين في ذلك؟ هل هناك رجل يستطيع مقاومة هذا الجمال؟ لكنني للأسف لا أستطيع المجازفة. فلابد أن صديقي في طريقه الآن وسيصل الآن. سنتقابل مرة أخرى، أريد أن أراكِ قريبًا.

يبدو أن كذبتي قد انطلت عليها هذه المرة. وإصراري على موقفي أقنعها بصدق هذا الموقف. بعد أقل من ثلاث دقائق كانت هذه السيدة خارج المبنى، وأنا خلف باب شقتي جالس على أرضية الشقة متخذًا وضع

القرفصاء. متكئًا بظهري على الباب الخشبي، غارقا في عبيرها الذي حل في المكان محاولا استيعاب ما حدث.

❊ ❊ ❊

في وسط الصالة الكبيرة جلست أمام مكتبي الصغير. غارقا وسط عشرات الموظفين. ألقيت قلمي على سطح المكتب فوق كومة من الأوراق. وبدأت أتأمل المكان من حولي.عشرات من الموظفين رجالا ونساء يجلسون على كراسيهم أمام مكاتب اصطفت بعضها بجوار بعض، والبعض الآخر في مواجهة البعض. على كل مكتب جهاز حاسوب تحجب شاشته معظم أجزاء وجوههم. أوراق متناثرة. أكواب من القهوة والشاي.

بعضها فارغ، وبعضها في انتظار أن يتكرم الموظف المشغول ويترك عمله المهم للحظات قليلة ويرتشف منه قدرًا. خيل لي أن كل ما يحدث هاهنا هو عبث. مسرحية عبثية. لا شيء يستحق هذا الصخب. شعرت أن انهماك هؤلاء الموظفين في هذه الأعمال هو ما يجلب لها القيمة والاهتمام، وأن الناتج الفعلي لما يقومون به ليس له أي علاقة بهذا التأهب والانشغال والانهماك.

منظر مهيب، ما هو إلا قشرة خارجية تغلف لبًا مجوفا. خلف تلك البزات الأنيقة والنظارات اللامعة ثمة زيف بيّن. بدأت أتخيل هؤلاء الموظفين مجردين من مظاهر

الاحترام والأناقة، فقمت بمحاولة تخيلهم دون ملابسهم الأنيقة في مخيلتي. بدأت بمديري المباشر. شاب أكبر مني بعام واحد. يرتدي بزة أنيقة. يتنقل بين المكاتب في حماس بالغ. يراقب هذا ويسأل ذاك. يعطي نصيحته الثمينة لأحد الموظفين الجدد فيقابلها الموظف المسكين بابتسامه إعجاب مصطنعة مشيدا بالنصيحة الغالية. كقائد حربي يتجول بين المحاربين. أقرب ما يكون إلى روميل في معركة حربية. لكن ما هي النتيجة الفعلية لما يقوم به؟ ما جدوى ما يفعله حقا؟ ما ضرورة وجوده؟ ما ضرورة وجودنا كلنا هاهنا؟ إنها دائرة من الزيف.

كل منا يحاول أن يصور لنفسه وللآخرين عظمة الدور الذي يقوم به، ومدى إخلاصه وتفانيه في العمل. وقدرته الفذة على الابتكار التي هي في الحقيقة لا تغير من خريطة الوجود شيئا. يبدو أننا لا نفعل شيئا جديدًا. لا شيء له قيمة حقيقية فعلا. نفس العمل الروتيني. أحيانا نغير الاسم. أو نغير الصيغة. لكن الجوهر واحد.

والنتيجة واحدة. حفنة من الأشخاص التافهين يقومون بأشياء تافهة معظمها غير ضروري. يقضون اليوم بكامله محاولين أن يثبتو أهمية وصعوبة الدور الذي يقومون به في الحياة، محاولين البرهنة على صعوبة أعمالهم التي إذا حذفنا منها كل الحشو والهراء لوجدنا أن الكمية الفعلية والمهمة في هذه الوظيفة تعادل نصف ساعة عمل لكل موظف. لا تحتاج إلى بزة رسمية، بل

يمكنك أن تعمل نصف الساعة هذه بملابس نومك فلن يغير ما ترتديه من شيء في ناتج ميزانية صماء. أو في دراسة جدوى لاتملك عيونا لتراك إن كنت ترتدي بزة رسمية أم سترة نوم.

تخيلت هذا الشاب الأنيق دون تلك البزة، ودون الكرافت. تخيلته مرتديًا ملابسه الداخلية فقط. يتجول بحرية بين المكاتب. هنا خطر في ذهني تساؤل. ترى ماذا سيكون لون ملابسه الداخلية؟ هل يرتدي فانلات بيضاء أم ملونة؟ هل يهتم بارتداء ملابس داخلية بنفس نظافة ياقة قميصه ناصعة البياض؟ أم سيختلف الأمر حين يتعلق بشيء لا يراه الناس؟ بشيء تخفيه الملابس عن الأعين. ماذا عن قدميه؟ وماذا عن أصابعها؟ هل ينظفها جيدا؟ هل يقلم أظافرها ويهذبها؟

ثم لمحت المدير العام عند باب مكتبه من بعيد ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك حينما تخيلته مجردًا من ملابسه الرسمية. مرتديا ملابسه الداخلية، وكرشة البارز يقاوم فانلته الداخلية دافعا إياها إلى الأمام كحيوان في الأسر يحاول الفرار إلى الحرية دافعًا باب قفصه القطني. تبادرت إلى ذهني أسئلة غريبة عن وقاره المصطنع.

هل يستمر وقاره هذا طيلة اليوم؟ هل يرافقه هذا الوقار في الحمام مثلا؟ وكيف يتصرف حينما يكون متأكدا أن

لا أحد يراه؟ كيف يتعامل مع زوجته؟ ماذا يرتدي في منزله؟ كيف يأكل المانجو؟ سيكون منظره فظيعا وهو ممسك بثمرة مانجو كبيرة مشقوقة بسكين ينهش لبها الذهبي اللذيذ في نهم كطفل صغير ووجهه غارق في عصارتها الصفراء. لا أعتقد أنه سيأكل المانجو أبدًا إذا صدر قرار بتجريم أكل المانجو في الخفاء وإلزام الناس بأكلها في العلن.

ثم تسللت هي إلى خاطري وتخيلتها وهي في غرفتها. بعيدا عن العمل. بعيدا عن الناس. لا أحد يراها من البشر. كيف ستبدو حينما تكون بمفردها؟ ماذا ترتدي حينما تنام؟ وكيف يبدو شكلها حينما تستيقظ لتوها من النوم؟ هل تسود الفوضى هذا الشعر المهندم؟ كيف تضع طلاء أظافرها؟ ولماذا تختار هذا اللون المستفز لي تحديدًا؟ هل هي صدفة؟ أم أنه شيء مقصود؟ هل يستفز هذا اللون باقي الرجال؟ ماذا دار بذهنها حينما قررت اختيار هذا اللون؟ هل تقصد أن تلفت انتباه أحد؟ هل تسأل نفسها إذا كان أحد ما قد لفت هذا اللون انتباهه؟

ثم لاحت في ذهني صورتها وهي معه، وهو يبدي إعجابه بطلاء أظافرها، وهي تبتسم في دلال. تحولت ابتسامتي الساخرة إلى عبوس وأنا أسأل نفسي هذه الأسئلة وأتخيلها معه متخيلا إياه يقبلها ويطارحها الغرام. سرت فجأة في جسمي قشعريرة مرعبة كلدغة عقرب، جعلت جسمي يهتز فجأة على الكرسي.

لم أحتمل هذا حتى في الخيال رغم معرفتي أن هذا لابد أن يحدث آجلا أو عاجلا. فلابد لها أن تتزوج يومًا ما. ولن يكون هذا في الخيال فقط بل على أرض الواقع.

❊ ❊ ❊

لم أكن مندهشا حينما دق جرس الباب هذه المرة. فأنا أعرف جيدًا من الطارق. ورغم ذلك لم أستطع منع نفسي من الانزعاج. فتحت لها الباب دون كلام. دخلت هي أيضا إلى داخل الشقة دون أية كلمة. ووضعت حقيبتها على المنضدة ونظرت إليّ بتحدٍ ثم قالت بخبث:

- هل سيزورك أيٌ من أصدقائك اليوم؟ أجبتها بكلمة واحدة: لا.

بدا عليّ الارتباك لكن هذا لم يمنعني من التقدم نحوها وتقبيلها عنوة. تقدمنا مباشرة نحو غرفة النوم. لم أسألها عن اسمها أو عن حياتها. طرحتها على الفراش وكلي تصميم أن أفعل ذاك الفعل معها اليوم.

لم يكن هناك ثمة تبرير معين في ذهني لتلك الفكرة، كل ما كنت أعرفه هو أنني أريد أن أفعل ذلك اليوم. ضاجعتها. لم أقبّلها كثيرًا. ضاجعتها بعنف وقوة. لم أقل لها أي كلمة. لم أُبدِ إعجابي بملامحها رغم جمالها الواضح. لم أمدح عطرها الفاتن. حاولت هي أن تجعلني أتكلم، أن تجعلني أنطق، أن أقول أي شيء، لكن دون

جدوى. لم أستطع أن أخرج أي كلمة من فمي. ضاجعتها ولم أمارس معها الحب. بكل ما أوتيت من قوة. بكامل طاقتي. مرة واثنتين، ثم أتى طيف تلك الفتاة في خيالي. إذا شاءت الأقدار أن يجمعنا بيت واحد سأضاجعها بكل ما أوتيت من حزن، طردت صورتها من خاطري ونظرت نحو تلك السيدة ممطرًا إياها كل قوتي وحزني. حاولت أن تجعلني أخلع ملابسي ولكنني رفضت بحركة من يدي. لم أحب أن أكون عاريًا معها، وحينما فرغنا جلست بجانبي. لم يبدُ عليها عدم الرضا رغم جفاف وخشونة طريقتي معها الخالية من أي مشاعر. ربما راق لها هذا. لا أعرف. حاولت أن تبدأ الحديث معي ولكنني كنت أتهرب من أسئلتها. رن هاتفها المحمول فقامت من على الفراش مسرعة وانزوت في ركن وأشارت لي أن أصمت رغم أنني كنت غارقا في صمت رهيب. تبدلت ملامحها فجأة وهي تهمهم بالكلمات بصوت خفيض. لم أفهم شيئا مما همهمت به. هل هو زوجها الذي يحدثها في الهاتف؟ أم ابنها؟ لا أعرف. فرغت من مكالمتها ثم رسمت ابتسامتها الماكرة مرة أخرى على شفتيها وبدأت في ارتداء ملابسها على عجل وهي تقول لي إنه لابد أن تذهب الآن. ولكننا لابد أن نتقابل مرة ثانية. قلت لها بالتأكيد. سألتني عن رقم هاتفي. لم أجد عذرًا يعفيني من الإجابة، أعطيتها الرقم

وتركت نفسي لها لتقبلني قبل أن تخرج، يبدو أنها تحمل حزنا هي الأخرى مختبئًا خلف ابتسامتها الجريئة تلك.

❊ ❊ ❊

انتشرت الأخبار بين المكاتب المتراصة عن قرب ارتباطها به. لم يكن هناك إعلان رسمي، لكنها كانت نميمة سيدات المكاتب والتي غالبا ما تصدق في مثل هذه الأمور، فللسيدات طرقهن الخاصة في استقصاء الحقائق والبحث عن المعلومات سواء كانت مهمة أو غير مهمة. بدأت أراقب همهمة السيدات محاولا أن ألتقط بعض الخيوط لمعرفة أي معلومة. وما زادني غيظا هو أن كل الهمهمات كانت في نفس الطريق. متسقة معا في اتجاه أنها سترتبط قريبًا.

بعد أن انتهت مواعيد العمل. لم أستقل نفس المواصلات. ولم أسِر في نفس الشارع. بل وقفت مختبئا خلف أحد الأشجار منتظرًا إياها أن تخرج. أراقبها من بعيد. مشيت خلفها، راقبتها حتى وصلت بيتها. ياه.. هذا هو منزلها. إنها تسكن هاهنا. شعرت أنني اقتربت من عالمها خطوات، لكنها لم تقترب من عالمي ولا خطوة. جلست في أحد المقاهي القريبة أراقب المنزل حتى تأخر الوقت. لم أرها تخرج من منزلها فعدت إلى شقتي الباردة.

في الصباح ارتديت ملابسي. ذهبت إلى بائع الزهور واشتريت منه باقة من زنبق أبيض. ذهبت إلى مكان عملي. لم أذهب إلى مكتبي هذه المرة بل صعدت الخمس عشرة درجة. توجهت نحوها مباشرة. كانت مشغولة تنجز شيئا ما في حاسوبها. وضعت الزهور على مكتبها. التفتت إلي.

قلت لها :

- لماذا تعاملينني هكذا؟

أجابت وهي مندهشة:

- عذرًا.

قلت لها بصوت مرتفع هذه المرة:

- عذرًا، شكرًا، صباح الخير، صباح النور. أكره كل هذا التهذيب. أنا أحبك، أحبك أيتها الغبية. كل هذه الأعوام وأنا أحبك ومهما تظاهرت أنك لا تعنين لي شيئا فالحقيقة أنك لي كل شيء، ثم صرخت فيها قائلا:

- لماذا لا تصرخين في وجهي؟ لماذا؟

قالت لي وهي مندهشة:

- ماذا تقول؟ هل جننت ؟

غادرت المكان بين نظرات الاستفهام والحيرة والافواه الفاغرة من الاندهاش والزنبق الأبيض المتناثر على

opeikan.com

الأرض. لم أفكر في عواقب ما فعلت. دخلت شقتي وأغلقت هاتفي وفككت أزرار قميصي. جلست على طرف الفراش، مطرقا رأسي ساكنا دون حركة. دق الجرس. أعرف جيدًا من يدق الجرس الآن. تحركت ببطء إلى الباب مرتديا قميصي ذا الأزرار المفكوكة. فتحت الباب. كانت هي. لم تكن تبتسم كالمعتاد، بل كانت متجهمة الوجه وثمة دمعة تنحدر على خدها. تلاقت أعيننا الحزينة، تقدمت نحوي فتركتها تدخل وأغلقت الباب. نظرت إليّ بعينيها الدامعتين وقبل أن تقول لي أي شيء ارتميت في حضنها وبكينا معًا.

❊ ❊ ❊

جزر لانجرهانز

توك توك.... توك توك.... صوت خافت من بعيد يتسلل إلى أذنيه... إنه يعرف هذا الصوت جيدًا... إنه صوت ماكينة الري.. لطالما استمع الفتى الأسمر لهذا الصوت في قريته وقت الغروب. هذا الصوت يذكره بشهور الصيف وقت الغروب حينما كان الفلاحون يروون الأرض في قريته. أغمض عينيه. نسي المكان.

نسي الزمان. ذهب بمخيلته إلى غروب ليالي الصيف الدافئة في قريته. إنه يشم رائحة الأرض. هبت نسمة شديدة البرودة على وجهه فانتفض من البرد وفتح عينيه وعاد إلى واقعه في إحدى الصحارى الباردة على حدود البلاد، ممسكًا ببندقيته منتظرًا أن تنتهي مدة خدمته.

obeikan.com

عقارب الساعة تحبو ولا تريد أن تتحرك. لم تمضِ على مدة خدمته في هذه الليلة سوى نصف ساعة. تحولت البندقية الحديدية إلى كتلة جليد بين أطرافه، نظر يمينا ويسارًا في تلك الليلة غير المقمرة تامة الظلام. كان الخواء لا متناهيًا. خواء فارغ إلا من صفير الرياح الباردة يقطعه شخير رفيقه المستلقي تحت أحد الأغطية المتهالكة على الرمال، وصوت توك توك المتسلل بين جنح الظلام من بعيد. من بعيد جدًا. من أين يأتي هذا الصوت؟ ربما من قرية مجاورة. وهل توجد قرى في تلك الصحراء؟ هل يوجد ماء أصلاً؟ وإذا وجد الماء فمَن المعتوه الذي يترك منزله في تلك الساعة المتأخرة وسط هذا البرد القارس ليروي أرضه؟ لم يجد إجابة.. تحرك بضع خطوات للأمام كي يعطي جسده القليل من الدفء نتيجة للحركة ثم قال لنفسه: لماذا أتعب نفسي في التفكير؟ من يريد أن يروي فليروِ.

نظر مرة أخرى إلى الساعة فلم يجد أن عقرب الدقائق قد تحرك سوى مقدار دقائق قليلة عن آخر مرة نظر فيها لساعته. لقد أصبحت حركة لا إرادية أن ينظر كل بضع دقائق للساعة عسى أن يكون الوقت قد مر دون أن يدري، لكن للأسف كان هذا التصرف يبطئ الوقت أكثر ويصيبه بالضجر. لابد أن أشغل نفسي بالتفكير في أي شيء إلا الوقت. لابد أن أنسى الوقت حتى يمر دون ضجر.

منذ ثلاثة أشهر مضت كانت عقارب الساعة تهرول أثناء الليل حينما كان يتحدث مع حبيبته. كم من ليلة داهمهم الفجر بل والصباح أيضا معًا، فلم يفيقا سوى على صياح الديك أو زقزقة العصافير، دون أن يشعرا بأن ساعة واحدة قد مرت عليهما.

عجيب أمرك أيها الوقت تسرع حينما نريدك أن تبطئ وتبطئ حينما نريدك أن تسرع! ترى ماذا تفعل هي الآن؟ هل هي نائمة؟ أم مستيقظة؟ هل تشعر بهذا البرد أم تشعر بالدفء؟ ثلاثة أشهر مرت وتبقى ما يقارب العام. أيام طويلة قبل أن تنتهي الخدمة العسكرية. ثلاثة أشهر مرت كثلاثة أعوام.. محروم من صوتها، من ضحكتها، وحتى من أخبارها. لكن حتى بعد مرور العام، هل ياترى سنعود معًا؟ هل ستكون مازالت تنتظرني؟

كانت الرياح تعوي وتصفر ثم تضرب الشريط الأسفلتي الضيق بحبات الرمل حتى اكتسى بالرمال. ورغم أكوام الرمال التي تراكمت عليه فهو ما زال الطريق الوحيد الممهد في هذه المنطقة النائية.

من بين أصوات لطمات الرمال المتتالية على سطح الطريق الأسفلتي ظهرت طقطقة غريبة قادمة من بعيد. يبدو أن أحدًا ما قرر استغلال هذا الطقس السيء وهذه الليلة المحاقية ليعبر الحدود. من ياتري يعبر الحدود

بهذه الطريقة سوى المجرمين والمهربين؟ لاحت هذه الأفكار سريعًا في رأس الفتى كطلقات متتالية فتحسس سلاحه وأرهف سمعه. كانت الأصوات تقترب. تعلو تارة وتنخفض تارة حسبما تحملها الريح، لكن من الواضح أنها تقترب نحوه على هذا الشريط الأسفلتي الممهد ببطء. تحرك الفتى بهدوء نحو رفيقه الغارق في النوم. لكزه بطرف حذائه العسكري محاولا أن يجعله يستقيظ دون جلبة. ثم مال نحوه وهزه برفق، ولما استيقظ رفيقه بادره بالهمس في أذنه قائلا: أنصت. لابد أن أحد المهربين أو المجرمين بالقرب منا الآن. ماذا نفعل؟ انتفض رفيقه سريعًا من فراشه وبدأ الاثنان يفكران في هذا الموقف. لم يشهد أي منهما مثل هذا الموقف من قبل. سمعوا حكايات من رفاقهم لكن يبقي هو وصديقه لم يتعرضا لموقفا مثل هذا. أطرق صديقه يفكر وهو منصت لبضع لحظات ثم قال له:

- لابد أن نبادر بالهجوم. أنصت مرة أخرى وقال:

- لاحظ هذا، إن الخطوات ليست كثيفة، يبدو أنها لشخص واحد أو اثنين على الأكثر. إذا اقتربوا منا سيهاجموننا بالتاكيد، وقتها لن نستطيع أن نفعل شيئا. لكن إذا بادرناهم بالهجوم ربما نربكهم ونقبض عليهم، ثم ابتسم وقال:

- وقتها ربما نحصل على بضعة أيام راحة أو ربما إجازة كمكافأة. بادره الفتى الأسمر قائلا: وربما يطلقون علينا النيران ويردوننا أمواتا.

- لن نجعلهم يطلقون علينا النيران. سنفاجئهم من مكان بعيد ونوهمهم أننا مجموعة كبيرة، حتى يلقوا أسلحتهم ثم نقبض عليهم. إنهم على أسوأ تقدير فردان. ربما يكونان غير مسلحين أيضًا.

-إذن ماذا سنفعل؟

- ستنطلق أنت إلى أقصى الشمال ماشيًا على الرمال حتى لا يسمعوا وقع أقدامك وسأنطلق أنا نحو الجنوب وحينما يقتربون منك اختبئ خلف التلة، ثم صح بأعلى صوتك لتثبتهم، فأصيح أنا كذلك من الناحية الأخرى بأعلى صوتي فنربكهم حتى يظنوا أننا فرقة كاملة.

تحرك الفتيان بحذر لينفذا خطتهما. اختبأ الفتى الأسمر خلف التلة الصغيرة منتظرًا اقتراب تلك الأقدام. أمسك بسلاحه بقوة ثم استجمع قوته وأخذ نفسا عميقا. ملأ صدره بالهواء وصرخ بكل ما أوتي من قوة طالبا منهم أن يثبتوا في أماكنهم ويلقوا أسلحتهم، وما إن صاح حتى اختفت أصوات الأقدام وسكنت. ثم صاح زميله من الناحية الأخرى واقترب الاثنان بهدوء نحو البؤرة التي سكنت فيها الأقدام. لم يكونا شخصين بل شخصًا واحدًا

ثابتًا في مكانه. اقتربا منه أكثر وأكثر. لم يتحرك ولم يُبدِ أي مقاومة. رجل نحيل لم يتبينا ملامحه. وجّه الفتى سلاحه نحو الرجل وطلب منه أن يجثو على ركبتيه ثم سأله بصوت خافت وهو يتلفت يمينا ويسارًا إن كان معه أحد. هز الرجل رأسه بالرفض. تقدم زميله نحو الرجل وتحسس ملابسه ليتأكد من أنه لا يحمل أسلحة فلم يجد في جيوبه سوى كسرة خبز متيبسة وزجاجة مياه، حشِرا معًا في جيب جلبابه المهترئ، ثم اقتاداه معًا نحو مكان خدمتهما.

أضاء الفتى كشافا صغيرًا ليتفحص الغريب. كانت هيئته غريبة حقا. كمثل إنسان بدائي هرب لتوه من العصر الحجري. شعر طويل مجعد ملتف حول بعضه. ولحية طويلة غير مشذبة يعلوها شارب يخفي شفتيه، ووجه بدا أنه لم يمس المياه منذ شهور. اقترب زميله من الرجل وتفحصه ثم همس في أذن الشاب الأسمر:

- لابد أنه مجنون ضل طريقه في الصحراء. ثم توجه نحوه وسأله: ما اسمك وإلى أين تتجه؟ لم يرد الغريب بشيء. كرر السؤال مرة أخرى ولكن بصوت أعلى، نظر إليه الغريب وقال بصوت واهن:

- جزر لانجرهانز.

- لانجرهانز؟ هل سمعت عن هذه الجزر من قبل؟ هل هي في إيطاليا؟ العديد من الناس يحاولون أن يعبروا

الحدود ليصلوا إلى إيطاليا أو اليونان. لابد أنها جزيرة يونانية أو إيطالية.

ابتسم الفتى الأسمر ولم يعلق واتجه نحو العجوز بحذر وسأله عن اسمه. كرر الغريب نفس الإجابة:

- جزر لانجرهانز. نظر إليه زميله وقال له:

- ألم أقل لك إنه معتوه؟ ثم نظر إلى الساعة وهو يتثاءب ويرتعش من البرد وقال:

- مازال الوقت مبكرًا، لن تأتي أي دورية الآن، سنقيد هذا المعتوه حتى الصباح وغدًا نسلمه للقائد ونحظى بمكافأتنا. ثم أمسك حبلا صغيرًا وقيد به الغريب، وتأكد من أنه مقيد بإحكام، ثم استلقى تحت غطائه وغطّ في نوم عميق.

اقترب الفتى الأسمر من الغريب وقد أثارت كلماته وهيئته فضول الفتى. هل هو معتوه فعلا؟ ومن أين عرف جزر لانجرهانز؟ إنها ليست جزرًا حقيقة بل هي مجموعة غدد في البنكرياس أطلق عليها جزر لشبهها بالجزر فسميت جزر لانجرهانز على اسم مكتشفها. إذن لابد أنه طبيب. طبيب فقد عقله. أو ربما عالم بيولوجيا. أو مجرد معتوه سمع هذه الجملة في التلفاز. نظر نحو الغريب وسأله بصوت هادئ:

- هل أنت جائع؟ التفت إليه الغريب ولم يجبه.

- هل أنت جائع؟ لديّ هنا القليل من الجبن والخبز إذا أردت.

هز الغريب رأسه وقال له: أشكرك. لديّ قطعة خبز في جيبي.

- إذن فأنت تفهم كلامي. قل لي إذن ماذا تقصد بجزر لانجرهانز؟ أنا أعرف أنها ليست جزرًا في البحر، بل هي جزر داخل جسد الإنسان. أجابه الغريب:

- يبدو أنك شاب مثقف واسع المعرفة.

جلس الفتى بجوار الغريب وقال له:

- ويبدو أنك طبيب.

- أنا يا ولدي لست طبيبًا. بل عالما في الجيولوجيا. قضيت حياتي أبحث في طبقات الأرض والصخور. كنت متفوقا مما جعل أكبر الشركات تتسابق لتجعلني أعمل بها. وبالفعل، كنت أعمل بمرتب ضخم في إحدى شركات البترول الكبرى. أمتلك منزلا جميلا وسيارة فارهة. وتأمينا صحيا على أعلى مستوى. أعيش حياة هادئة لا جديد فيها. حتى اعتلت صحتي في أحد الأيام فذهبت إلى تلك المستشفى الكبيرة وأخبروني أنهم بحاجة لعدة تحاليل وأشعة. كانت النتيجة ببساطة سرطانًا في البنكرياس. لم أصدق في بداية الأمر رغم إجماع الأطباء. عدت إلى منزلي ونظرت إلى نفسي في المرآة،

كنت أظن أنني سأبكي، لكن لم يحدث هذا، بدا أنني غير مصدق، وبدا لي أنهم يتحدثون عن شخص آخر غيري أنا. وبمرور الأيام بدأت تلك الحقيقة تترسخ في عقلي.

بحثت عن هذا المرض وقرأت عنه الكثير في المجلات العلمية والمواقع الطبية. كانت النتيجة واحدة. أن من يصاب بهذا المرض لن يعيش أكثر من خمس سنوات على أقصى تقدير، وأن نسبة قليلة جدًا هي تلك التي تصل إلى تلك المدة. كان شعورًا بشعا. كالحكم بالإعدام.

حكم عليّ بالإعدام ولا أعلم متى سينفذ الحكم، لكن بأي حال من الأحوال لن أتعدى الخمس سنوات وأنا في هذه الحياة. ثم أجمع الأطباء أنني بحاجة إلى عملية جراحية. يزيلون فيها جزءًا من الورم اللعين. ستعطيني هذه العملية فرصة أكبر. ربما تجعلني أكمل الخمس سنوات. سيستأصلون فيها جزئا من البنكرياس والمعدة والاثني عشر والقناة المرارية والأمعاء... ياللهول!

سيفرغون أحشائي ليمنحوني فرصة العيش أقل من خمس سنين بأحشاء مبتورة. ثم بعد ذلك أستسلم للعلاج الكيماوي الذي سيحيل جسدي إلى هيكل يشبه الجثة، جثة هامدة تتنفس وتعد الأنفاس في انتظار خروج آخر زفرة. كانوا يتكلمون بمنتهى الجمود كأنهم يتحدثون عن قطعة أثاث، وبهذا الجمود حاولوا دفعي للموافقة على هذا الانتحار الشرعي. وسط خضم معمعة الأطباء

والجـراحين وافقـت علـى إجـراء العمليـة الجراحيـة مستسلمًا لقدري، كخروف في الحظيرة منتظرًا دوره في الذبح. ثم حددوا لي موعد الذبح. ليلة ما من ليالي العام، تشبه باقي الأيام، لا يميزها عن أي ليلة أخرى سوى أنني سأتنازل فيها عن نصف أحشائي. أتت الليلة الموعودة سريعًا. ليلة العملية ظننت أنني لن أستطيع النوم، لكنني نمت مبكرًا جدًا. واستيقظت في الفجر قبل شروق الشمس. ثم خرجت من منزلي، كان هناك القليل من الوقت فقررت الذهاب للشاطئ. جلست أمام الشاطئ ونظرت إلى البحر وبدلا من أن أذهب للمستشفى مشيت سائرًا بمحاذاة البحر. ظللت أمشي دون هدف محدد.

شعرت كأنني أهرب. أهرب من سجن ما لا أعرفه.

أهرب من شيء أحمله بداخلي. وفجأة لمعت في رأسي فكرة بسيطة في منطقها. إذا كان مصيري هو الموت فلماذا أموت في ذلك المستشفى اللعين؟ سأموت على طريقتي. نعم إذا كانت النتيجة الحتمية هي الموت فليكن موتًا بالطريقة التي أختارها. ظللت أمشي دون تفكير حتى وجدت نفسي قد غادرت العمران ودخلت في مشارف الصحراء. ما هو أسوأ شيء سيحدث لي؟

ستلدغني عقرب؟ سيأكلني حيوان مفترس؟ سأموت من الجوع أو العطش؟ ما المشكلة؟ في كل الأحوال

مصيري هو الموت. تولدت لديّ شجاعة لم أعهدها من قبل، واستهانة عظيمة بالمخاطر. وولدت بداخلي راحة عظيمة، لم أعهدها من قبل، لم أعد قلقا من شيء. لقد حدث الأسوأ لذلك ليس هناك مبرر للخوف من السيء. مشيت في الصحراء يومين دون طعام أو شراب. أحرقتني شمسها الحارقة حتى ظننت أنني سأموت في تلك اللحظات. ألقيت نفسي على الرمال وابتسمت، قلت لنفسي الموت في هذا المكان الرحب أفضل من الموت بين جدران المستشفي. ثم غبت عن الوعي.

لما استيقظت وجدتني في خيمة أحد البدو الذين يسكنون الصحراء. اعتنى بي حتى تحسنت صحتي جزئيا وأعطاني طعامًا وشرابا. تسللت من الخيمة ليلا وأكملت طريقي في دروب الصحراء. كنت أقضي أيامًا دون طعام أو شراب حتى أقابل شخصًا بالصدفة.

فيعطيني القليل من الماء والطعام وأكمل مسيرتي.

لم أكن أخشى أن يأتي اليوم الذي لن أقابل فيه أحدًا فأموت من الجوع. وضعت الموت أمامي وسعيت إليه فهرب مني. أصبحت الحياة أكثر رحابة. وغمرتني حالة من الرضا ليس لها مثيل. حتى الألم صرت أتغلب عليه لا أعرف كيف أصف هذا. لكنني صرت لا أخشاه. كلما أحسست بمرضي وبضعفي، لا أبالي، بل أنطلق في

طريقي بسرعة أكبر وتصميم أعظم. أحسست أن حياتي القديمة كانت مقيدة بقيود غير مرئية. لم أعد أخاف من شيء. لا من إفلاس ولا من مرض ولا حتى من الموت.

طفت بلادًا وصحارى وجبالا وأنهارًا. رأيت السهول الخضراء المليئة بالحياة. والصحارى المقفرة الجرداء.

لم أندم قط إلا على الأيام التي قضيتها محصورًا تحت قيود صنعتها بنفسي وقيدت نفسي بها قديمًا، والآن ها أنا هاهنا، أوصلتني قدماي إليكم، لا أعرف ماذا يحمل لي الغد. مر عام كامل وأنا في تجوالي هذا، بدأت صحتي تعتل أكثر وأكثر ولكن روحي أصبحت أكثر شبابًا. ربما أموت غدًا أو بعد غد أو ربما أموت الآن. لكني سأموت وأنا راضٍ كل الرضا.

إنني يا بني أتجول باحثا عن بلاد بعيدة غير موجودة في هذا العالم، لا أعرف إن كنت أنا الذي أبحث عنها، أم هي التي تبحث عني. أنا الذي اقترب نحوها أم هي التي تقترب مني. يبدو أنها موجودة بداخلي، كجزر لانجرهانز تلك.

صمت الفتى لحظة مطرقا في التفكير، وصوت الرياح يصفر حوله. ثم قام الفتى وأحضر القليل من الجبن والخبز والماء وغطاءً قديمًا ووضعهم أمام الرجل الغريب. ثم حل وثاقه وأعطاه الطعام والمياه والغطاء وأخبره أنه حر يستطيع أن يرحل.

- لكن يا ولدي ربما تعاقب على هذا. سيخبر رفيقك رؤساءك وربما تقع في مأزق.

- لن يحدث هذا. ماذا سيقول لهم؟ سيقول لهم إنه نام وتركك معي؟ سيعاقبوننا معًا. لا تبالي بما سيحدث لي سأتدبر أمري. اذهب في طريقك حاملا معك جزرك العجيبة ربما تصل يوما ما إلى وجهتك.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

قميصان

قميصان ملقيان على سرير، وخزانة خشبية فتحت أبوابها، أمامهم وقفت فتاة خمرية البشرة، واسعة العينين، فاحمة الشعر، في منتصف العشرينات. تنظر إلى قطعتين من القماش وتحاول أن تحتمي بهما من برد الليل. بديا كظلين لشخصين خذلاها.

أحدهما بالموت والثاني بالهجر والسفر. القميص الأول، قميص أحادي اللون. لونه هادئ، يسوده الوقار.

إنه قميص والدها الذي مات منذ عام. أما القميص الآخر فيبدو لشاب في عمرها وإن كان لا يسوده الكثير من الزخرفة مثل تلك الزخرفة المنتشرة في ملابس معظم الشباب هذه الأيام.

obeikan.com

طوال العام الماضي كانت كلما اشتاقت إلى والدها، تغلق باب غرفتها، وتذهب إلى خزانتها وتخرج قميصه هذا. تضعه على فراشها وتنظر إليه. تخاطبه كأنها تخاطب والدها. تشكو له مشاكلها.

وتستشيره في أمورها. ثم تقبله وتضعه بحرص في خزانتها. واليوم يبدو أن هذا القميص قد وجد رفيقا له.

رفيقا أصغر سنا ولكن أكثر ألمًا. قميصا لحبيب مهاجر.

نظرت الفتاة إلى القميص وتذكرت تلك الليلة حينما ذهبت إلى بيت خالتها متعللة بأنها لم تزر تلك الخالة منذ فترة. لم تكن خالتها هي السبب الحقيقي لهذه الزيارة.

جلست الفتاة بجوار خالتها العجوز ونظرها معلق بباب غرفته نصف المفتوح. تستمع لنفس الكلام الذي تقوله لها خالتها كل مرة بأنها كبرت وأصبحت عروسًا، وأن من سيتزوجها سيكون محظوظًا. استأذنت خالتها أن تقوم لتعد لهما كوبين من الشاي. تقدمت الفتاة نحو هذا الباب نصف المغلق. تسللت إلى الداخل. كم تحب هذه الغرفة. دائما كانت تلك الغرفة رمزًا لنوع من المجهول.

مجهول لذيذ مليء بالمغامرة. شعرت الفتاة بتلك الألفة القديمة رغم التغيير الواضح في الغرفة هذه المرة.

الكتب مرصوصة في صناديق خشبية. الحاسوب مغطى بقطعة قماش، والتراب قد بدأ يتسلل من النوافذ محكمة

الغلق. نوع من الوحشة بدأ يعشش في أركان الغرفة. لم تكن هكذا منذ أيام قلائل. تحسست الفتاة صناديق الكتب بيدها، وتحسست جدران الخزانة الخشبية. فتحتها ببطء.

كان هناك العديد من الملابس التي تركها في خزانته.

ليرتديها حينما يعود. هذا ما قاله لوالدته. لكنه لن يعود.

هي تعرف أنه لن يعود ثانية أبدًا. لقد كان عازمًا على الرحيل دون عودة. حينما وقف أمام المرآة. ووجهه ملطخ بكريم الحلاقة خاصته. ويده ممسكة بماكينة الحلاقة تخترق تلك الرغوة لتزيلها وتزيل شعر لحيته الخفيفة الذي بدأ يظهر. سألته تلك الفتاة العشرينية:

- هل صحيح أنك ستسافر؟

لم يجبها مباشرة. بل انتظر حتى فرغ من تنظيف ماكينة الحلاقة من آثار الرغوة والشعر. ثم قال لها:

- نعم سأسافر.

ابتلعت الفتاة تلك الإجابة الجافة ثم سألته مرة أخرى:

- متى ستعود؟

ترك ماكينة الحلاقة في الحوض ونظر إليها بملامح جادة صارمة وقال لها بحزم:

- لن أعود ثانية.

لقد كان قاسيًا ولكن يبدو أيضًا أنه كان صادقا في قسوته تلك.

تحسست الفتاة ملابسه المرصوصة في الخزانة. أخرجت أحد قمصانه. وضعته بحذر في حقيبتها، وأخذت القميص معها لينضم إلى رفيقه الآخر. ليؤنس وحدة لياليها.

أب مات وحبيب رحل. شعور مؤلم بالحنين إلى أيام قد ولت. وأشخاص لم يعودوا موجودين. لكن الأمر ليس سيان في الحالتين. إن قلبها الموجوع من رحيل والدها يلتمس له العذر. لقد غادر الأب دون رغبة منه في الرحيل. غادر ولن يعود، لكنه غادر حاملا إياها في قلبه. أما ذاك المسافر فقد سافر بمحض إرادته. مقررًا التخلي عنها. طاردًا إياها من قلبه. إنه الشعور الأبشع.

يا ليته مات. فإن موته كان سيكفل لقميصه مكانة أفضل . لكنه ذهب إلى الأبد. تريد أن تلتمس له العذر مثلما تلتمس لوالدها فترتاح. لكنها غير قادرة. الحل الوحيد هو أن يموت. الحل الوحيد هو أن يقتل. لابد أن تقتله.

وضعت الفتاة القميصين بحرص في مكانهما في خزانتها، وجلست على فراشها وعقلها متعلق بهذا المهاجر، تخيلت أن هذا المسافر مازال هاهنا، ابتسمت وهي تراه أمامها مرتديا هذا القميص. ثم بدأت تتخيل أنه مات مثلما مات والدها. شحذت خيالها. ركزت أفكارها.

اندمجت في فكرتها المريعة حتى انخرطت في البكاء.

لقد مات هذا الحبيب. مات ليلحق بأبيها تحت التراب.

اشتدت نوبة البكاء بينما تتخيل نفسها مودعة إياه لمثواه الأخير، وبعد أن هدأت. مسحت دموعها بكفها. فتحت خزانتها مرة أخرى. أخرجت ملابسها السوداء التي كانت ترتديها وقت أن مات والدها. ملابس حدادها. ارتدتها لتعلن الحداد.

لقد بدأ الحداد على موتك أيها الحبيب.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

غانـــدي

لم تكن معالمه واضحة تحت دمائه التي خضبت وجهه البني الملفوح بلون الشمس، كانت لحيته الحمراء تبدو كشعلة نار وإن بدا أنه قد انطفأ وهجها بعد أن خضبتها الدماء. (**وفاة سائق ميكروباص في ظروف غامضة**)، لم يشدني العنوان، بدا كعنوان رخيص مكرر، في عصر أقل ما يشد انتباه المرء فيه هو الدماء بعد أن أصبحت أمرًا عاديا. من يستيقظ صباحًا على أخبار التفجيرات والقتل الجماعي لأعوام يفقد القدرة على الاندهاش من الدماء، ويصبح لديه خبر انسداد ماسورة الصرف في الشارع أو قطع المياه عن الحي الذي يقطنه أكثر أهمية من القتل والموت.

obeikandl.com

اسمه غاندي ولا أعرف كيف اكتسب هذا الاسم، أحد سائقي الميكروباص الذين يعملون في تلك المنطقة، ركبت معه كثيرًا، شاب فارع الطول، طوله قرابة المترين. ضخم البنية. يسير بين السائقين في موقف الميكروباصات كتنين من تنانين الأساطير القديمة.

تحيط بوجهه تلك اللحية الحمراء كهالة من نيران مشتعلة، فتكسب وجهه نوعًا من الدفء يسربه إلى أقرانه من السائقين. ساعدته تلك الهيئة في عمله كثيرًا، فلم أرَ أحدًا من السائقين استطاع التعدي على دوره في موقف الميكروباصات أو أجبره على الخضوع. يحجز المقعدين المجاورين له للجنس اللطيف، لم يتنازل عن هذا المبدأ إلا مرات نادرة، لكن إحقاقا للحق لم ألحظه يتعدى حدوده مع أي فتاة تجلس بجواره.

ممسكا بكوب الشاي. يقود سيارته المتهالكة، مبتسما تارة ومغنيا تارة وصائحًا في وجه أحد السائقين تارة أخرى، لهجته كمثل باقي السائقين. نبرة صوته عالية طوال الوقت يشوبها تطويل للآخر حرف، يبدو أنه اكتسب تلك اللهجة المناسبة لمهنته، فبين ضجيج المحرك، وزحام الطريق يحتاج إلى نبرة عالية وشفاه تطيل الكلام حتى يستطيع السائق الآخر أن يتفهم الرسالة بوضوح.

يدير مفتاح سيارته، لتتحرك السيارة على مهل تشق عباب أمواج السيارات المتناثرة يمينا ويسارًا، حتى يظهر فجأة هذا الرجل الذي يقف دائما في نفس المكان. رجل ليس طويلا ولا قصيرًا، بل ذا قامة متوسطة الطول. وجهه دميم الملامح. أكتافه عريضة، يبدو أنه مارس الرياضة قديمًا. يرتدي نفس الملابس صيفا وشتاء. رداء أكمامه قصيرة وقفّاز قصت أطرافه بطريقه تظهر الأصابع، ممسكًا في يده برزمة من النقود، فئة الجنيه والنصف جنيه والربع جنيه.

لا يتحرك كثيرًا، بدا لي كأحد الفتوات الأشرار في روايات نجيب محفوظ. يأتي أحد السائقين ويسلمه النقود، فيأخذها منه دون تعليق. يحاول السائق أن يمازحه، فينظر إليه دون أن يتكلم، يعود السائق إلى عربته بعد أن خاب أمله في التودد إليه. يتكرر هذا المنظر كثيرًا، مع أغلب السائقين، إلا واحدًا، إلا غاندي.

تختفي ابتسامته للحظات، يعطيه النقود دون أن يتكلم، ثم يكمل طريقه.

اختفى غاندي من موقف الميكروباصات لأسبوع، واختفى معه الرجل دميم الوجه. ثم ظهر غاندي فجأة كما غاب فجأة، ركبت معه في تلك الليلة، جلست في المقعد التالي لمقعده في الخلف مباشرة، لم يكن هناك

ثمة فتيات أو نساء في المقعدين المجاورين لمقعده، بل جلس شاب نحيل بدا أنه صديقه. بعد أن اكتمل عدد الركاب، ركب غاندي السيارة، كان وجهه عابسًا وثمة خدوش ظاهرة في وجهه. أشعل سيجارته في صمت. أدار محرك السيارة، رن هاتفه المحمول، بدا عليه الارتباك، سمعته من الخلف وهو يكرر أكثر من مرة قائلا:

- محدش بياخد أكتر من نصيبه.

أغلق هاتفه المحمول فاقترب منه صديقه النحيل، وقال له:

- مش قلتلك ده مسنود.

شرد غاندي في الطريق، كانت تلك آخر مرة أراه فيها قبل أن يعاود الظهور غارقا في دمائه في تلك الصحيفة.

بعد أيام قليلة ظهر هذا الرجل دميم الوجه مرة أخرى، لم يكن واقفا في مكانه المعتاد، بل جلس في أحد الأركان على كرسي خشبي قديم، ووجهه مثخن بالخدوش والجروح. ذراعه الأيسر ملفوف بقطعة من القماش، نافثا دخان سيجارته في الفراغ.

حام حوله السائقون كالذباب لكن لم يجرؤ أحدهم على الذهاب إليه أو الحديث معه. بعد يومين، وجدته في مكانه المعتاد، ممسكا بالنقود بيده التي مازالت ملفوفة

بقطعة القماش، لكنه كان مبتسمًا، ممارسًا عادته في السخرية من السائقين وسبهم.

اختفت تلك الجروح تدريجيًا بمرور الأيام، لكن بقيت هناك علامة صغيرة أسفل عينه اليمنى، تظهر بوضوح حينما يبتسم فتذكره بجرح قديم، جرح ما في ليلة غامضة.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

آكلو لحوم البشر

نحن آكلو لحوم البشر، نعم نحن نأكل لحم من تدعونهم بشرًا. مهما اختلفت معي فإن ذلك لن يغير مذاق قطعة من لحم الفخذ البشري اللذيذ أو مذاق قطعة لحم من الكتف. العجيب ليس هو نهمنا لما تدعونه اللحم البشري، بل الأغرب هو أنكم تصطادون فرائسكم من الظباء والكباش، بل والطيور الصغيرة الضعيفة أيضا، ثم تتناولونها بتلذذ، وعندما نفعل المثل بهؤلاء البشر تعتبرون هذا غريبًا.

obeikan.com

نعيش معًا في قبيلتنا، فهاهناك في طرف القبيلة خيمة الأمير بجوارها خيمة ساحر القبيلة وطاهي القبيلة، في ناحية، ويسكن باقي أفراد القبيلة في الناحية الأخرى، والذين لا يختلفون كثيرًا عن بعضهم البعض، فهم مجموعة صيادين من الرجال والشباب، ومجموعة من كبار السن كانوا في الماضي صيادين وأصبحو الآن يقومون فقط ببعض الحرف البسيطة، ثم مجموعة من النساء والأطفال.

نحتفل اليوم بميلاد فرد جديد في القبيلة، إنه جاجو، ولد فجر اليوم، والقبيلة كلها مجتمعه للاحتفال بجاجو. لن يكتمل الاحتفال دون وليمة عظيمة بهذه المناسبة، لذلك خرج معظم رجال القبيلة للصيد. الحقيقة إننا نعاني من أزمة في الصيد. أزمة كبرى. غالبًا ما يعود الرجال دون صيد، ونتيجة لذلك نضطر إلى تناول جذور النباتات حتى ساءت صحة أفراد القبيلة وساد السخط بين أفرادها. لكن اليوم الحال مختلف، يبدو أن جاجو الصغير أتى وجلب معه الخير، فقد وفق الصيادون في صيد وفير. أعدّت الموائد للحفل وجلس أفراد القبيلة لتناول الحساء اللذيذ المشبع باللحم الطازج، وضعت القدور ومد الرجال أيديهم للحساء وحاولوا جاهدين أن يعثروا على قطع اللحم داخل قدورهم ولكن دون جدوى.

بدأوا يتهامسون ويتساءلون فيما بينهم عن اللحم. هل سيأتي اللحم بعد الحساء؟ أم هل تم تأجيل وجبة اللحم للغد؟ وحين لاحظ أمير القبيلة الهمس، وقف بين الرجال وقال بصوت عالٍ:

- أيها الرجال، نحتفل اليوم بمولود جديد أتى إلينا حاملا الخير معه، فبفضل مولد جاجو اليوم توفر لنا لحم طازج لم نره منذ شهور، ونتيجة لقلة اللحم، وحيث إن معدتكم لم تعتد عليه طوال هذه المدة فقد رأينا أنه من الأفضل أن نطهوه جيدًا حتى يسهل هضمه في بطونكم الخاوية، لذا فقد ذاب اللحم داخل الحساء، فاستمتعوا بحسائكم وادعوا لجاجو بحياة سعيدة.

نظر الرجال إلى بعضهم وهمهموا، لقد ذاب اللحم في الحساء! كيف يحدث هذا؟ كيف يذوب اللحم في الحساء؟ دائما نأكل اللحم ولم تمرض بطوننا. ضاع الأمل في وجبة لذيذة نتذكر بها هذا اليوم، أو ربما هي وجبة لذيذة ونحن لا ندري. مد البعض من كبار السن أيديهم إلى الحساء وبدأوا بتناوله، همهم البعض من أفراد القبيلة ونظر البعض باستفهام إلى الأمير. لكن في النهاية تناول الجميع حساءهم في صمت. في المساء احتفلنا جميعًا في تلك الليلة وأشعلنا النيران، لم نتحدث كثيرًا عن موضوع الحساء. انشغلنا في الحفل، لقد كانت ليلة عظيمة.

مرت عدة أيام والصيادون يعودون خالي الوفاض، حتى وفقوا ذات ليلة في صيد جديد. لقد بات واضحًا لنا أن مولد جاجو يحمل الكثير من الخير لقبيلتنا، سنأكل الليلة لحمًا طازجًا، جلس الجمع مترقبين قدر اللحم، وضعت القدور والأطباق. رفع الغطاء، لم يكن هناك لحم هذه المرة أيضًا، نظر الجميع إلى أطباقهم في صمت حتى صاح أحد الفتيان: أين اللحم؟ أريد نصيبي من اللحم. ثم بدأ الصوت يعلو. أتى الأمير ووقف أمام المائدة الكبيرة وبجواره ساحر القبيلة والطاهي ثم قال للرجال:

- لن نطهو اللحم على الطريقة القديمة ثانية، إن تلك الطريقة تتعب البطون والأمعاء. لقد رأى طاهي القبيلة أن الطريقة القديمة في إعداد اللحم هي التي تصيبكم بالكثير من الأمراض، وحرصًا منا على سلامتكم فقد أمرنا الطاهي بأن يطهو اللحم جيدًا حتى يذوب في الحساء ويصبح مرقًا، فلا تصيبكم الأمراض. كما أن ساحر القبيلة يرى أنكم حينما تأكلون اللحم بالطريقة القديمة فإنكم تجلبون على القبيلة الحظ السيء، ألم تروا أننا اصطدنا اللحم الطازج مرتين في نفس الشهر بسبب أننا قمنا بطهو اللحم بهذه الطريقة؟ لن أترككم تفسدون أجسادكم وتجلبون على أنفسكم الحظ السيء بانغماسكم في شهوتكم. من واجبي أن أحميكم.

لاقى خطاب الأمير العديد من ردود الفعل المختلفة، بعضهم من عارض بصوت مرتفع وبعضهم من ترك

المائدة في غضب بينما سمع البعض الحديث ثم مدوا أيديهم لتناول الحساء، دون إبداء أي ملاحظة، بل إن أحد الأطفال حينما سأل والده عن اللحم قدم له والده طبق الحساء وقال له إن اللحم بداخل هذا الطبق. أمسك الطفل الطبق ونظر لأبيه وقال:

- إنه مجرد حساء لا يوجد به لحم. فقال له والده:

- لقد ذاب اللحم في الحساء، حتى لا تتعب بطوننا من تناول قطع اللحم، تناول هذا الحساء إنه مفيد ولذيذ.

لم يبدُ على الطفل الاقتناع ولكنه تناول الحساء لأنه كان جائعًا. تكرر الأمر كثيرًا، يرى أهل القبيلة الصيد بأعينهم ولا يشعرون به في بطونهم. يقول لهم الأمير إنهم تناولوا اللحم ولكن أمعاءهم ترفض كلامه. يقسم لهم الطباخ إنه طها اللحم حتى ذاب في الحساء وأصبح مرقًا فيتذمر بعضهم، ويؤكد ساحر القبيلة أن كثرة التذمر تجلب الحظ السيء والنحس، فيسكت الرجال ويتناولون حساءهم في صمت. كل مرة يدخل الصيد خيمة الطاهي التي تقع في طرف القبيلة خلف خيمة الأمير والساحر.

تفوح رائحة اللحم، ثم يخرج هذا الحساء ويقدم لأهل القبيلة والصيادين، حتى أتى يوم تسلل فيه ثلاثة فتيان من شباب القبيلة، واختبأوا خلف خيمة الطاهي، ثم رأوا الصيد وهو يدخل الخيمة، ويخرج اللحم الوفير متجهًا نحو خيمة الأمير والساحر، موضوعًا في أواني كبيرة.

خرج الفتيان إلى وسط القبيلة وصاحوا بين الناس ليخبروهم بما رأوا. تجمهر أفراد القبيلة. خرج الأمير ليرى ما يحدث. كان الغضب عظيمًا. التفوا حول الأمير قائلين:

- أين الطعام؟ لا نريد المزيد من هذا الحساء أين اللحم؟

- إنهم كذابون، إننا نطهو اللحم لكم بالطريقة التي تريح بطونكم. هجم الجمع على خيمة الأمير والساحر، كانت أواني اللحم مرصوصة على الموائد، وأدلة الجريمة واضحة. ألقو القبض على الأمير والساحر وحبسوهم في السجن، صاح الأمير وهو مقيد من خلف سجنه قائلا:

- إنكم مخدوعون، هناك من دبر هذا ووضع اللحم في الخيمة ليفسد هدوء وسلام القبيلة. لم يستمع أحد لكلامه. وضع الأمير في الحبس واختار أفراد القبيلة أميرًا جديدًا وساحرًا جديدًا. أما الطاهي فقال لهم إنه كان ينفذ أوامر الأمير والساحر، وليس له سلطة، كما أنه ليس هناك من يستطيع الطهو مثله. فتركوه بعد أن عاهدهم أن يطهو لهم اللحم بالطريقة التي يحبونها. عادت موائد اللحم للظهور، وامتلأت البطون، يوما بعد يوم، وتساءل أهل القبيلة كيف سمحوا لأنفسهم أن يتم خداعهم طوال تلك المدة. وفي أحد الأيام وبينما يتناولون طعام الغداء شعر أحد أفراد القبيلة بألم في بطنه، وما لبث بضعة أيام حتى

مات. بعد عدة أيام أخرى حدث نفس الشيء لرجل ثانٍ ثم ثالث. بدأ الخوف يسري في أهل القبيلة، أخذ الساحر يصيح من خلف قضبان سجنه:

- إن موت هذا الرجل هو بسبب تلك الطريقة التي تطهون بها الطعام، وإن اللعنة أصابتكم وسوف تصيبكم جميعًا.

كرر الأمير نفس الكلام، ووسط صيحات الأمير والساحر تسرب الشك في نفوس أهل القبيلة، قال أحد الرجال:

- لا نريد أن نموت، لابد أن نسمع كلام الأمير هذه المرة، إنه يريد أن يحمينا، يحمينا من أنفسنا ومن الحظ السيء ومن الموت الذي نجلبه لأنفسنا.

أجاب آخر:

- لابد أن نخرج الأمير والساحر ونتبع أوامرهم، ونطهو اللحم ونجعله يذوب في الحساء حتى لا نمرض ونموت.

سمع أحد الفتيان هذا الكلام فصاح بهم:

- ما بالكم تغلقون أعينكم عن الحقيقة، لقد كنا نأكل الطعام بهذه الطريقة منذ قديم الأزل ولم يمرض أو يمت أحد، لا أعلم ما هو سبب موت هؤلاء الأشخاص، ربما دبر هذا الطاهي هذه الحيلة ليثير الشك في أنفسكم، ألم يكن طاهي الأمير؟

صاح أحد الرجال قائلا له:

- و ما أدرانا؟ ربما أنتم من دبرتم وضع اللحم في خيمة الأمير، إنكم أنتم سبب هذا البلاء، لابد أن نذهب الآن ونخرج الأمير حتى ينقذنا من هذا البلاء، وأنتم لابد من حبسكم لأنكم من جلبتم علينا المرض والموت.

صاح الجميع مؤيدين لتلك الفكرة وتوجهوا للسجن وأخرجوا الأمير والساحر.

نحتفل اليوم بميلاد فرد جديد في القبيلة ولد فجر اليوم، إنه ابن جاجو، لقد رزق جاجو فجر اليوم بمولود صغير، والقبيلة كلها مجتمعة للاحتفال به، لن يكتمل الاحتفال دون وليمة عظيمة بهذه المناسبة، لذلك خرج معظم رجال القبيلة للصيد، يبدو أن هذا المولود الجديد أتى وجلب معه الخير.

❊ ❊ ❊

حكاية قبل النوم

أميري الصغير. الجالس فوق السرير. حدثتني صديقتي الجميلة. التي تسكن بجوار البحيرة فقالت:

يُحكى أن سيدة تدعى (س). كانت تعيش وحيدة في بيتها الكبير الكائن بين أحضان أحد الجبال النائية. كان بيتها منيعا وحصينا ومنيرا في وحشة الليل. يظهر كقطعة من الضياء والدفء بين الظلام والثلج. محاطًا بسور صغير يقيه من عواصف الشتاء القاسية. لكن داخل جدران هذا

obeikan.com

المنزل كانت السيدة (س) وحيدة هي ولؤلؤتها الثمينة المحفوظة على الحامل الذهبي بين جدران منزلها.

ومهما وضعت من حطب في مدفأة منزلها لم تستطع نيران المدفأة أن تزيل ثلج الوحدة القارس. كانت كل ليلة تقوم بتلميع لؤلؤتها الثمينة وتنظر إليها بإعجاب ثم تذهب إلى فراشها لتنام وحيدة.

في أحد الأيام في شتاء ليلة قارسة البرودة. سمعت السيدة (س) طرقًا على الباب. كان الوقت قد تأخر، وصوت صفير الرياح في الخارج يعوي كذئب جائع، وحطب المدفأة قد نفد فانطفأ لظاها، ولم يتبقَ سوى رماد بارد أبيض كالثلج. لكنها لم تسطع مقاومة إغراء معرفة من الطارق. قامت السيدة (س) بحذر من سريرها وتوجهت نحو الباب ووقفت خلفه تسترق السمع. لم يكن هناك صوت. فقالت لنفسها: ربما تكون الرياح قد قذفت بإحدى قطع الثلج محدثة هذا الصوت. لكنها حينما همت بالرجوع إلى فراشها.عاود صوت الطرق على الباب مرة أخرى. كانت الطرقات هذه المرة أقوى وأوضح.

يبدو أن غريبًا ما ضل الطريق وعثر على هذا المنزل.

غضبت السيدة (س) من داخلها فهي تكره الغرباء. لم تستضف غريبًا من قبل ولن تستضيف. فليمت هذا الشارد بين الثلوج التي قذفت به إلى هنا. مع تكرار

الطرقات قامت السيدة (س) بفتح النافذة الصغيرة الموجودة أعلى باب المنزل بحذر وهي تتلفت يمينا ويسارًا محاولة أن ترى وجه هذا الغريب المتطفل، ولكنها لم ترَ شيئا. كانت الطرقات مازالت مستمرة والسيدة (س) لا ترى شيئا، فنظرت إلى أسفل الباب، فوجدت طفلا صغيرًا جالسًا على الثلج أمام المنزل، يطرق الباب بيأس وقد بدا عليه الإعياء الشديد.

فتحت (س) الباب للطفل وتأملته بعينيها. كان طفلا بشرته غريبة يبدو أنه ليس من سكان الجبل. كان منهكا ومرتعشا. ترتجف أوصاله من البرد، وبجواره زكيبة غريبة الشكل. لم ينطق بأي كلمة. كانت شفتاه ترتجفان فنظر إليها دون أن يتكلم.

رق قلب (س) لهذه النظرة. وتحول غضبها إلى ابتسامة هادئة. فحملت الطفل إلى الداخل هو وزكيبته.

وضعت الطفل على الأريكة ثم أغلقت الباب. وذهبت إلى المدفأة لتشعلها. ولكنها تذكرت أنه لم يعد هناك حطب. فأحضرت بعض الملابس الثقيلة والأغطية للطفل، ثم ذهبت لتعد للطفل حساءً ساخنا يدفئ به جسده المتجمد. عندما رجعت وجدت الطفل جالسا أمام المدفأة فاتحًا زكيبته التي كانت ممتلئة بالحطب. وقد أشعل النار في بعض الحطب وألقاه في المدفأة، وبين الحين والآخر يُخرج قطعة حطب جديدة ليلقيها في النار حتى غمر

الدفء المكان، فتقدمت وجلست بجواره. جلسا معًا تعلو وجه كل منهما ابتسامة صافية. ابتسامة دفء غير متوقع في ليلة قارسة البرودة.

مرت الأيام وتعلقت (س) بالطفل الذي بدأ ينمو ويكبر ويفهم أكثر وأكثر. يومًا بعد يوم. كان الطفل يساعد (س) في أعمالها المنزلية. يجمع الحطب، ويشعل لها المدفأة. شعرت (س) بأن وحدتها قد ذهبت دون رجعة. كان فراشها دافئا يوميًا بفعل نار المدفأة المشتعلة دائما. وذاب جليد وحدتها.

كان الطفل دائم الحركة والاستكشاف في المنزل. تارة يصعد إلى سطح المنزل، وتارة أخرى تجده في القبو يفتش في خزائنها القديمة وفي أغراضها المنسية. يحيل المكان إلى فوضى. فتبتسم (س) وتقوم بمحاولة إعادة ترتيب هذه الفوضى دون شكوى فيرد لها الطفل الابتسامة بابتسامة أخرى ويساعدها في تنظيم هذه الفوضى.

لاحظت (س) شغف الطفل بلؤلؤتها الغالية. كم من مرة ضبطته وهو ينظر إليها بالساعات. كان قلب الطفل معلقًا بهذه اللؤلؤة. يجذبه إليها سحر غريب، ويغريه لمعانها الفتان. وفي إحدى المرات التي كان الطفل ينظر فيها إلى اللؤلؤة بإعجاب. وقفت (س) بجواره في هدوء وهمست في أذنه قائلة:

-هل تعجبك؟

نظر إليها ودون تردد قال:

- نعم تعجبني .

فقالت له:

- إن هذه اللؤلؤة عزيزة جدا إلى قلبي، إنها ميراثي الذي ورثته من والدي هي وهذا المنزل، ثم قالت له إنها لا تستطيع أن تعطيه إياها الآن، لأنه طفل صغير، وتخشى أن يحطمها أو أن يضيعها. قال لها الطفل إنه سيحافظ عليها ولكنها قاطعته في حزم قائلة له إنه ما يزال صغيرًا. من يأخذ اللؤلؤة لابد أن يكون رجلا ناضجًا يعرف كيف يحافظ عليها ولا يضيعها. سألها الطفل بحيرة:

- ومن ياترى يكون ناضجًا؟

- حينما تكبر وتعمل تكون ناضجًا.

- أعمل؟ أي الأعمال تحبين؟

- في جبلنا هذا أفضل الأعمال هي الصيد. فالصيادون شجعان لا يخافون شيئا. سواعدهم قوية. وقلوبهم فتية.

سرح الطفل بخياله لبرهة ثم توجها معًا لتناول العشاء.

مرت الأيام وبدأ جليد الشتاء يختفي بين ثنايا شمس الربيع. والطفل و(س) معًا كل يوم حتى استيقظت (س)

في صباح أحد الأيام ولم تجد الطفل. أخذت تبحث عنه في كل ركن من أركان المنزل. فوق السطح. في القبو. بجوار السور ولكن دون جدوى.ارتدت ملابسها وأغلقت المنزل وخرجت إلى الغابة تبحث عنه ولكنها لم تجده. بحثت بين الأشجار، وفي ثنايا الجبل ووراء الصخور، ولكنها لم تجده.

كانت الشمس قد بدأت بالمغيب، وليل الظلام يتسلل بخفة فقررت الرجوع إلى المنزل قبل حلول الليل، لكنها حينما حاولت أن تعود اكتشفت أنها ضلت الطريق.

ظلت تسير هائمة بين الأشجار والظلام قد أرخى سدوله واختفت الشمس وغمرت المكان ظلمة جبلية موحشة.

أيقنت (س) أنها ربما تكون النهاية لو لم تجد مكانًا يؤويها حتى الصباح. ظلت (س) تمشي وحيدة. تائهة تحاول العودة إلى منزلها ولكنها لم تستطع. ثم لاح في الأفق نور خافت من بعيد. استجمعت السيدة (س) قوتها وسارت بسرعة نحو هذا الضوء. كان الضوء آتيًا من منزل بعيد وحيد بين أحضان الجبل كمنزلها. تقدمت السيدة (س) نحو المنزل بقوة حتى وصلت إلى بابه.

كانت هناك أصوات صاخبة تأتي من خلف الباب.

طرقت السيدة (س) الباب ففُتح الباب، وخرجت إليها سيدة يبدو أنها صاحبة المنزل. نظرت إليها بابتسامة، و قبل أن تقول السيدة (س) أي كلمة دعتها صاحبة

المنزل للدخول. دخلت السيدة (س) إلى المنزل بخطوات بطيئة. شجعتها صاحبة المنزل على الدخول إلى المنزل بحركة من يدها وهي تقول لها إن اليوم هو عيد ميلاد ابنها الصغير، وأنهم جميعًا يحتفلون اليوم هم وأقاربهم.

دخلت السيدة (س) إلى داخل المنزل وتجولت بين المدعوين بحذر.

كانت الأجواء غريبة على السيدة (س) التي اعتادت أجواء الوحدة. شعرت بألفة غريبة وبدأ الدفء يدب في أوصالها مرة أخرى. لكنها كانت تشعر بشيء من الحزن على الطفل الذي ضاع ولا تعرف أين ذهب.

أخذت صاحبة المنزل السيدة (س) في جولة سريعة في المنزل لتعرفها بباقي المحتفلين. اصطف المحتفلون في مجموعات صغيرة. كل مجموعة مكونة من اثنين، أو ثلاثة، أو بضعة أشخاص. يضحكون، أو يرقصون، أو يتبادلون أطراف الحديث. لكن أكثر ما لفت انتباه السيدة (س) هو زاوية من زوايا المنزل يوجد بها تجمع غريب من المحتفلين. كأنهم تركوا باقي المنزل وتجمعوا معًا في بقعة صغيرة حول شيء ما.

تجولت السيدة (س) بين أرجاء المنزل وتبادلت التحية مع الموجودين. لم تستطع أن ترفع نظرها عن هذا التجمع الغفير. لماذا تجمع أغلب المدعوين هناك في هذا الركن؟ لابد أن هناك سرًا ما. نظرت إليها صاحبة

المنزل وابتسمت وقالت لها: -يبدو أنك غير معتادة على أجواء الحفلات.

قالت لها السيدة (س) :

- نعم إنني غير معتادة فعلا، لكن ما يحيرني هو هذا الزحام هناك. قالت لها صاحبة المنزل:

- إن هذا الزحام هناك بسبب وجود السيدة (إكس) معنا اليوم.

- ومن هي السيدة (إكس)؟

- إنها سيدة عجوز. ظهرت فجأة في الناحية. لديها قدرات غير عادية، فتتنبأ بالمستقبل. وتقرأ الطالع، أغلب المدعوين يأخذون بمشورتها في مشاكلهم. نظرت السيدة (س) إلى الجمع مرة أخرى وجال في خاطرها شيء واحد.... الطفل .

تحركت السيدة (س) ببطء نحو مجلس السيدة العجوز (إكس) وهي لا تعرف ماذا ستفعل. اقتربت ببطء. كان الناس متزاحمين كأنهم عطشى على باب سبيل. متلهفين لكلمة من السيدة (إكس) أو حتى لإيماءة ما من رأسها المباركة. حينما وصلت السيدة (س) إلى مجلس السيدة العجوز (إكس) لم تعرف ماذا تفعل وبينما هي تفكر وتحاول أن تصل من وسط الزحام. تحركت إحدى السيدات خارجة من الصف فوجدت السيدة (س) نفسها

وجهـا لوجـه أمـام السـيدة (إكس). كانـت السـيدة العجـوز تحـاور إحـدى السـيدات الجالسـات بجوارهـا. ارتبكـت السـيدة (س) ولـم تعـرف مـاذا تفعـل فنظـرت لهـا السـيدة (إكس) بحـدة فحاولـت السـيدة (س) أن تنطـق ولكنهـا لـم تسـتطع فهمهمـت بشـفتها وقالـت بصـعوبة كلمـة واحـدة فقط... الطفل .

نظـرت السـيدة العجـوز إلـى السـيدة (س) مباشـرة فـي عينيها وقالت لها جملة واحدة:

- إنه خيال صعنه عقلك.

ثم أشاحت السيدة العجوز بنظرها واستكملت حديثها مـع البـاقين. اسـتجمعت السـيدة (س) قوتهـا وقالـت بصـوت عـالٍ: الطفـل، لكـن السـيدة العجـوز لـم تعرهـا انتباهًـا. صـرخت السـيدة (س) بصـوت أعلـى: الطفـل الطفـل الطفل. دون جدوى ظلت تصرخ وتصرخ حتـى فقدت الوعي.

استيقظت السيدة (س) علـى ضـوء قـوي فـي عينهـا. لـم تكن تعرف أين هي. ثم سمعت صوتا خافتا حنونا يقول:

- صباح الخير.

التفتت السيدة (س) فـإذا بهـا تـرى صـاحبة المنـزل بوجـه مبتسم تقول لهـا - لقد كنـا فـي أشد القلـق عليك، طـوال الليل وأنتِ تصيحين وتهذين بصـوت عـالٍ بكلمـات غيـر

مفهومة، وجسدك محموم. استدعينا الطبيب ولكن حمدًا لله أنتِ الآن أفضل حالا.

شكرت السيدة (س) صاحبة المنزل على عنايتها بها واستأذنتها أن تعود إلى منزلها بعد هذه الليلة الغريبة. عرضت عليها صاحبة المنزل أن تبقى معهم يومًا أو اثنين حتى تتعافى تماما ولكنها اعتذرت بأدب ووعدتها بأن تزورها في أقرب وقت. رجعت (س) إلى منزلها في حيرة تامة لا تفهم ماذا حدث. هل كانت تحلم؟ هل كان هناك طفل فعلا؟ أم أنها تحت وطأة الوحدة خلقت هذا الطفل في خيالها؟ لم تكن تعرف. لم تجد إجابة.

لكن من تلك اللحظة لم تعد حياتها كالسابق. ذهبت السيدة (س) إلى منزل السيدة الطيبة التي استضافتها أكثر من مرة. واعتادت زيارتها. لكنها لم تدعُ السيدة صاحبة المنزل إلى منزلها ولا مرة. كانت تزورها في منزلها فقط. تكونت علاقة جديدة مع هذه السيدة ومع أصدقائها.

مع ظهور فصل الصيف ظهرت هناك نسمات عليلة ترطب حرارة الصيف. اعتادت السيدة (س) هذه النسمات. ونسيت أمر الطفل، وكلما تذكرته تذكرت كلام السيدة العجوز وأقنعت نفسها أنه كان وهمًا. تعلقت السيدة (س) بابن السيدة صاحبة المنزل. كان طفلا جميلا، واثقا من نفسه. استطاع أن يخطف انتباه السيدة (س) التي اعتبرته حقيقة في مقابل وهم الطفل الضائع.

دعته إلى منزلها. فكان يزورها في منزلها، ويساعدها في أعمال المنزل. كان مختلفا عن الطفل القديم. لم يكن يهتم بالمدفأة ولكنه كان يحب الصيد. كان يصطحبها يوميًا في رحلات بين ثنايا الجبل، ويريها فنون الصيد، وحينما كان يعود معها للمنزل لم يكن يستطيع إخفاء إعجابه باللؤلؤة المحفوظة في العلبة الذهبية. ولأنه أكثر نضجًا. ولأنه صياد ماهر. أعطت السيدة (س) للطفل تلك الجوهرة. مرت ليالي الصيف الهادئة وزحف الشتاء مرة أخرى. وظلت المدفأة بلا حطب وكان الطفل يخرج كل يوم ليصطاد، ولم يحضر معه أبدًا حطب التدفئة.

عاد البرد من جديد وتكون الجليد أمام المنزل وتسرب البرد إلى داخله. نامت السيدة (س) في غرفتها وحيدة وسط البرد الشديد. لم يكن هناك حطب. أطرافها تكاد تتجمد. تحاملت على نفسها وتوجهت نحو المدفأة.

أشعلت عود ثقاب بحثت عن أي قطعة حطب فلم تجد.

انطفأ عود الثقاب. فأشعلت آخر. البرد شديد لا يطاق.

أمسكت بكرسي من أثاث المنزل. حطمته. ثم ألقت به في المدفأة. أشعلت الثقاب. فانبعثت الحرارة. الآن أفضل. لكن هل سأحرق شيئا من الأثاث في كل ليلة باردة؟ يبدو أنني سأقضي على كل أثاث المنزل. ماذا بعد أن ينفد الأثاث؟ لم تشغل بالها بالتفكير وعادت إلى فراشها.

بعد عدة أيام كانت السيد (س) قد أصيبت بالحمى والسعال من الطقس القارس ثم فجأة وفي منتصف الليل طرق الباب... إنها نفس الطرقات القديمة. قالت السيدة (س) هل أنا أحلم؟ هل يعاود عقلي العبث معي مرة أخرى؟ هل بدأ البرد يعبث في عقلي كما يعبث في أوصالي؟ سكنت الطرقات ثم بعد برهة عادت أقوى وأعنف، قامت السيدة (س) وتعكزت على عصا صغيرة وهي تسعل. اتجهت نحو الباب. لقد كان هو. نفس الطفل بنفس الزكيبة. ولكنه الآن أصبح شابًا. معه نفس الحطب ولكن في كتفه الآخر رمح معلق. نظرت له وهي ترتعش من البرد ومن الحمى. لم تستطع أن تقول ولا كلمة واحدة. سقطت على الأرض من المرض والتعب.

بعد ساعات قليلة أو كثيرة لم تعرف مقدارها. فتحت (س) أعينها. كانت واهنة جدًا. لم تستطع تحريك أجفانها إلا بصعوبة. حاولت أن تحركها ولكنها لم تقدر. أحست بدفء المدفأة يسري في المكان، وصوت طقطقة الحطب المحترق تعلو وتخفت. لمحت الشاب هناك على الكرسي أمام المدفأة يلقي الحطب في بطن المدفأة. لم تنطق بأي كلمة. أغمضت عينيها حتى استيقظت في اليوم التالي.

تحركت (س) من سريرها وتوجهت نحو المدفأة ونظرت حولها لكنها لم تجد أي أثر للشاب. ولم يكن هناك أي حطب. جلست (س) على الأريكة محاولة أن

تستوعب ما يحدث معها. هل هي هلاوس؟ هل يختلق خيالها هذا الشخص كما قالت لها السيدة العجوز؟ في خضم هذه الحيرة سمعت طرقات الباب. فتحت الباب وجدت الشاب معه حزمة من الحطب على كتفه وممسكا بيده الأخرى أدوات الصيد معها طائر كبير يبدو أنه اصطاده للتو. نظر الشاب إليها ثم قال:

- معذرة لقد دخلت المنزل أمس دون أن أستأذنك فلقد كنتِ في حالة مزرية وحرارتك كانت مرتفعة وكنت فاقدة الوعي، فظللت أرعاك طوال الليل حتى هدأت الحمى، وفي الصباح خرجت لأجمع بعض الحطب وأصطاد شيئا لنأكله في الغذاء. لم تقل (س) شيئا ولم تدعُه للدخول أو ترفض دخوله. بل ظلت صامتة. فدخل الشاب إلى المنزل وسط صمتها ووضع الطائر على المنضدة. ألقى حزمة من الحطب في المدفأة ودون أن ينبس أي منهما بأي كلمة تعاونا معًا في إعداد المكان، وفي طهو الطائر وتجهيز الطعام دون كلام.

وضعت (س) طبقًا كبيرًا في وسط المائدة يحوي الطائر بعد أن تم شيه. وبضعة أطباق صغيرة تحوي حساءً دافئا وجلس الاثنان قبالة بعضهما يتناولان الحساء ببطء ويتبادلان النظرات دون الحديث. كانت أعينهم تتقاذف الأسئلة كالسهام ولكن دون أن يجرؤ أحد على تحويل هذه النظرات إلى كلمات. افتتح الشاب الكلام وقال ل(س):

- يبدو أن الطائر شهي. كما يبدو أنك بارعة في فنون الشواء. ابتسمت (س) ابتسامة قصيرة وقالت بصوت خفيض:

- شكرا. ثم أكملت تناولها للحساء بنفس البطء.

أنهى الاثنان غداءهما دون أن يتناولا شيئا من الطائر. انتظر كل منهما الآخر حتى يقترب من الطائر ولكن لم يحدث، ظل كل منهما ينظر للطائر لكن دون أن يلمسه. ظل الطائر يشاهدهما، لكنهما لم يشاهداه. ثم قاما معًا من على المائدة وشرعت (س) في تنظيف المكان وجمع الأطباق. تحرك الشاب لمساعدتها في نفس الصمت فانزلق أحد الأطباق من يد (س) على الأرض وتحطم. انحنت لتلتقط شظايا الطبق المكسور من الأرض في نفس اللحظة التي هم فيها الشاب لالتقاط تلك الشظايا المتناثرة على أرضية الغرفة فتلاقت أعينهما في لحظة. نظرت (س) إليه دون كلام وأمعنت النظر ثم فجأة قالت:

- لماذا تركتني؟ أين كنت؟ ولماذا عدت الآن؟

- تركتك لأتعلم فنون الصيد. تركتك لأكون جديرًا بثقتك وأصبح رجلا كما وعدتك. وقد عدت الآن لأنني أتقنت فنون الصيد، ولأريك ماذا أعددت لك.

- بكل بساطة هكذا؟ تظهر وترحل؟

- لكنني عدت.

- عـدت! عـدت بعـد أن ظننتـك خيـالاً؟ وشـككت أننـي مخبولة؟ عدت بعد أن أعياني الصقيع وأنهكتني البرودة؟ يالك من ذكي!

حولت (س) وجهها إلى الناحية الأخرى وشرعت في البكاء فتقدم الشاب إليها، مد يده محاولا أن يمسح دموعها فأبعدت يده عن وجهها.

نظر الشاب إليها مليًا ثم شرع في إكمال جمع شظايا الطبق المكسور دون أن يتحدث، وحينما وقف ليضع باقي الشظايا على المائدة نظر إلى الحامل فوجد الجوهرة غير موجودة؟

نظر الشاب إلى (س) وبوادر الدموع تلوح من مقلتيه.

فصرخت (س) وهي تنظر إليه وأجابته دون أن يسأل:

- نعم لم تعد موجودة. نعم ذهبت اللؤلؤة. ذهبت بعد أن تركتني لأوهامي وجعلتني كالمخبولة لا أعلم الحقيقة من الوهم. يمكنك الخروج الآن أيها الصياد الهمام لتبحث لك عن جوهرة أخرى. لن أبرر ولن أعتذر لك. سأقول الحقيقة صريحة لك. لقد ذهبت اللؤلؤة.

خرج الشاب من المنزل تاركًا أدوات الصيد والحطب والطائر المشوي. جلست (س) على الأريكة وهي تبكي. لم تكن تدرك حقيقة ما حصل. ولم تكن تفهم ما يجري.

كانت مرتبكة. محتارة بين أفكار عدة. بين أحاسيس متناقضة بالذنب والحنين والوحدة والاحتياج والخوف. لقد كانت المدفأة مشتعلة بنيران الحطب لكن (س) كانت ترتعش من البرودة.

نظرت (س) إلى مرآتها وحاولت أن تتأمل ملامح وجهها. نظرت إلى عينيها. حركت رأسها ونظرت إلى نفسها حاولت أن تبتسم. ثم تعبس. ثم تضحك. وهي تراقب وجهها. فانحدرت دمعة على خدها. نامت (س) ليلتها وهي لا تعلم ماذا فعلت ولا ماذا ستفعل.

في صباح اليوم التالي كانت هناك أخبار عن عاصفة ثلجية عنيفة ستهز أركان الجبل. تحاملت (س) على نفسها وخرجت حتى تغلق أبواب السور الخارجي بإحكام وتضع بعض الحواجز وتستعد للعاصفة. حينما كانت تتفقد الجانب الأيمن من السور. كان هناك شرخ كبير ولابد من رأبه قبل هبوب العاصفة وإلا ستتسرب الثلوج منه إلى داخل الفناء بقوة. ربما تعبث الرياح بجدران المنزل. لذلك حاولت سريعًا أن تصلحه. أمسكت بقطعة من الخشب. حاولت أن تضعها في الشرخ وتثبتها ببعض المسامير. لكنها لم تستطع وحدها. فقطعة الخشب ثقيلة ولا تستطيع تثبيتها وحدها. حاولت وحاولت. لكنها لم تستطع. أخذت تبذل كل قوتها. أخذت أنفاسها تتسارع وهي تحاول رأب الصدع قبل هبوب العاصفة. بينما هي تمسك قطعة الخشب وتحاول تثبيتها،

وجدت يدًا بشرية تمتد من خلفها لتمسك قطعة الخشب. نظرت (س) فإذا بالشاب واقف بجوارها وهو يبتسم ويقول: لابد أن نثبت هذه القطعة سريعًا فالعاصفة على وشك الهبوب. لم تجادله في شيء وفي وقت قصير كان الاثنان قد ثبتا قطعة الخشب معًا ثم دخلا إلى المنزل. أغلقا الباب محتميين معًا من العاصفة.

- صغيري. هل نمت؟

حمدا لله أنك تنام كل مرة قبل أن أكمل الحكاية، وقبل أن أصل إلى الجزء الذي تطرد فيه السيدة (س) الشاب من المنزل، فيخرج من عندها مكسور القلب، فاقد الأمل ويجلس على مقربة من باب المنزل دون حراك تحت الثلج المتساقط. ويموت متجمدًا دون أن يتحرك وهو يرى المنزل ينهار تحت وطأة العاصفة الثلجية متهدمًا على السيدة (س) التي تموت وهي على بعد أمتار قليلة من الشاب المتجمد.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

للتواصل مع الكاتب

Kyrillos Elabd

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٥
أصحاب الفانلات الخضراء ٧
أبو الذيك ١٣
الفتى الأحول ٢٥
سيدة المصعد ٣٠
جزر لانجرهانز ٤٩
قميصان ٦٢
غاندي ٦٧
آكلو لحوم البشر ٧٢
حكاية قبل النوم ٨٠

obeikan.com

الإسكندرية ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١ (+٢)

٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧ (+٢)

حسناء للنشر والتوزيع

openkan.com